قبل ليلة 19 فبراير

"عندما يعزف الشيطان"

رواية

تامر محمد عزت

اهداء

إلى كل مواليد 19 فبراير

الإنسان يحتاج من حين لآخر إلى من يضعه أمام مرآه لا تكذبه؛ فتعكس صورته الحقيقية وليست تلك التي يتوهمها عن نفسه أو يظهر بها أمام الآخرين

عبد الوهاب مطاوع

في كلّ نفس، كما في كلّ بيت، توجد، غير الواجهة، زوايا مخبّأة

راوول برانداو

ليلة 19 فبراير

(قبل ثلاث سنوات)

قبل أن تدق التاسعة مساء كانت السحب قماشًا أسود تمسكه العواصف وتكنس به الأرض والناس، يكثر من النظر إلى ساعته داعيًا مولاه أن يرحمه من تلك الوظيفة التي لا فائدة منها غير الانتظار، اطلع ببصره ناحية الفيلا المضيئة حاسدًا صاحبها طبيب النساء والتوليد الدكتور أمجد غانم، وابنة أخيه ريم أحمد، وقع داخل قلبه الدفء والراحة وهو يكاد يتجمد بردًا في فيلته.

(ليلة عجيبة)

هكذا حدثت نفسه، علم من الدكتور أمجد أنه سيحتفل بذكرى عيد ميلاد ريم الليلة سويا بدون ضيوف.

(إذن. طالما بدون ضيوف وبدون خدم، لماذا أنا هنا؟)

تأفف الحارس وبصق على الأرض في قرف، همّ بفتح جهاز الراديو الذي يعمل بالبطارية ليعلم أخبار الدنيا، نهض لتحضير كوب من الشاي الساخن، اهتز جسده الممتلئ في تكاسل، بعد أن أشعل الفحم استخدم نفس عود الثقاب ليحرق سيجارته بدلا من أن يحترق هو، بشكل مباغت انقطع التيار الكهربائي، خرج الحارس من قوقعته ليجد الفيلا وكأنها كيان مخيف في مدينة الأشباح، طلقتان من الرصاص دوت داخل الفيلا، ألقى سيجارته وأمسك بسلاحه وقلبه يقفز من الرعب ، كل شيء هادئ، لم يهدأ قلبه ، تقدم بخطوات ثقيلة تجاه الفيلا ، لا يريد أن يُقحم نفسه في مشكلة، ود لو يهرب الآن ولكن، لم يلاحظ هروب شبحين من خلفه ، فكر أن يعود سريعا إلى

مخبئه ثم الاتصال بالشرطة، لكن قدماه تسمرتا في مكانهما عندما تقدم اتجاهه شخص على هيئة شبح بلا ملامح بخطوات منتظمة، ثقل جسده وشلل عقله وانفجار الادرينالين داخل خلايا جسده منعه من الهرب ، اتسعت عيناه من الرعب عندما وجد عصا غليظة يعرفها جيدا تهبط فوق رأسه ليسقط على الأرض، سقط قبل أن يسمع دوي رصاصة ثالثة وضعت كلمة النهاية ، ولكنها فاجأت الشبح الهارب جعلته يقف مكانه للحظات ويستدير ؛ليفهم ما الذي يحدث داخل الفيلا ويتساءل في غموض : من هناك ؟

***

ما إن أنهي خالد كتابة هذا المشهد حتى قام من مكانه، غرفته كانت أشبه بسجن انفرادي بعيدًا عن باقي المنزل، أو أشبه بكهف الخفاش، كل ما يحتاجه للعيش بهذه الحياة موجودة بهذه الغرفة، الثلاجة، التلفاز وإن كان مغلقا طوال الوقت، جهاز اللاب توب، غلاية المياه للشاي والنسكافيه التي يدمنها، سخان ذو سلك حلزوني للقهوة، السرير، خزانة ملابس، أوراق كثيرة مبعثرة هنا وهناك، أقلام مختلفة الألوان.

خالد يعترف أنه كاتب مغمور، يكتب الكثير من القصص القصيرة والروايات ولكن بلا فائدة مادية أو معنوية، عصبي، سريع الانفعال والغضب، انتصب بقوامه الممشوق أمام مرآته يستعرض حركاته التمثيلية، كان يقرأ من ورقة كتبت بخط اليد، قال بصوت جهوري:

"سأضع كل الذين تسببوا في ايذائي في قصة رعب، وأتلذذ بخوفهم، وارتجاف قلوبهم، وترتفع ضحكاتي مع كل نبضة قلب تنفجر من فرط

الهلع، واثناء استنشاقي للأكسجين الملوث بنيكوتين سجائري وجسدي مخدر بنشوة هذا الخليط؛ سأستمتع باستنشاقهم للهواء المخلوط بالأدرينالين العتيق من جوف خلايا جسدهم وأسخر منهم وأنا أشارك في دفنهم أحياء في قبور الجحيم ".

ألقى ورقته على الطاولة ثم سار خطوات قليلة تجاه صديقه الذي كان يراقبه في صمت وسأله:

ما رأيك؟

أشعل صديقه لفافة تبغ ووقف أمام لوحة معلقة على حائط الغرفة، كانت بها شرفة بديعة التكوين الهندسي تشرف على بحيرة صناعية تلتف حولها غابة متدثرة بالثلج الصناعي. تتساقط فوقها قطرات من المطر الطبيعي. ثم استدار ليجد خالد يكمل حركاته المسرحية ويقول:

سيداتي سادتي، ها أنا أتحرر من مخاوفي وقلقي ورغباتي الهستيرية، ها أنا أصعد بروحي إلى السماء أتحرر لأُولد من جديد وأنتم شهداء على هذا الميلاد، الميلاد من الظلام البارد، سأظهر لكم مرة أخرى، إنسان نقي، فاضل، ملاك، حياة جديدة تستحق أن أعيشها بعد كل هذا العذاب.

هل هذه العبارات من ضمن أحداث الرواية؟

سأله صديقه على مضض

استنكر خالد ثم قال:

لا. هذا أنا. أمثل أمامك ما الذي سوف أفعله في الرواية.

أها.أنت تحاول من البداية أن تخيفني! هل أنا قادم إليك في هذ الساعة المبكرة، في هذا الطقس الكئيب لتُلقي بي في غياهب الجحيم؟ تساءل صديقه في ضيق.

ابتسم خالد وهرش رأسه ثم لحيته وقال:

وأنا لم أنم طوال الليل؛ أحاول تجميع الصور والمشاهد وأكتب وأمزق ما كتبته، ألا ترى هذه الفوضى؟ هذه الرواية سنكتب فصولها معًا، انها حقيقية وخيالية، لقد رأيتها كاملةً كأنها حلم من أحلام اليقظة، كان الحلم أشبه بقصاصات مبسترة لفيلم متحرك. مشاهد ولقطات.

ابتسم صديقه في غموض ثم لمعت عيناه، هدوء يسري في قنوات مخه، ملامح بليغة المقال، أطفأ سيجارته، ثم جاء صديقه حاملا كوب النسكافيه ووضعها أمامه في حرفية، شكره، وسار إلى باب غرفته وتأكد من غلقه جيدا، امتدت يد خالد نحو النسكافيه الداكن ورفعه نحو فمه، ثم سكب بعض الشراب الساخن داخل جوفه في شرود، ثم همس بصوت لا يسمعه إلا هو وقال في زهو:

إذن. ليبدأ العرض

(بعد ثلاث سنوات)

ريم

الفصل الأول

19 يناير

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحًا، أتكاسل قليلا قبل النهوض من فوق الفراش الدافئ، ولكن لا بد من النهوض وكالعادة خطواتي تسرع تجاه النافذة لأرى ماذا ينتظرني بالخارج، أحزن قليلا عندما لا أجد ما رسمته في خيالي، لا تنجلي الشمس بشكل واضح، وتظهر بعض العلامات المنبئة بأمطار رطبة ولكن قد تتأخر قليلا في الهطول. ابتسمت في حزن خفي ثم اخذت نفسا عميقا وتطلعت إلى مرآتي، كنت أرتدي منامتي زرقاء اللون. اللون الذي أحبه دائما وأبدا. وفي حالة من الوعي والنشاط بعد سبات عميق، أخيرًا إنها ذكرى يوم ميلادي، برج الدلو، البرج -كما يقولون-البرج الحلو.

- ريم

انه صوت خالتي، تتعجل يقظتي؛ كي نستعد للحفل الذي سوف يقام اليوم، بالرغم من عدم وجود مدعوين كثر إلا أنها تهتم بالتفاصيل منذ اسبوع، وها هو أول النهار وهذه البداية أخذ الأمور بمنتهى الجدية والحزم

- ريم

- نعم. حاضر. قادمة

تطلعت مرة أخرى إلى النافذة وتأملت الطقس خارجا في ذكرى يوم ميلادي، فأنا متطيرة، الجو الملبد بالغيوم يصيبني بالتشاؤم، والجو المشمس المشرق يدفع بهرمون السعادة في خلايا جسدي، ولكن هذا اليوم ولكن هذا اليوم. بين وبين!

أغلقت النافذة وتحسست أطراف أناملي دبلتي الذهبية، منقوش على سطحها الداخلي اسم خالد وقلب و1 يوليو، وبسرعة وقبل أن تنادي خالتي عليّ مرة ثالثة ورابعة أسرعت بترتيب الغرفة والسرير وهدأت بعد الفوضى القائمة في جوفها.

-صباح الخير والفل والياسمين يا هيدي

هيدي. أو هيدي هانم. السيدة الطويلة القامة، شقراء الشعر، بيضاء البشرة، عيون خضراء. جمال أوروبي مُطلق، ليست متزوجة، ولا أعلم سر عزوف الرجال عن اقتناء مثل هذه السيدة الفائقة الجمال، او ربما هي من رفضت الزواج بعد تجربة مرت بها، ابتسامتها الساحرة تجعلك تذوب عشقا في جمالها وتطير شوقا إلى أحضانها، الخالة هيدي هي المسؤولة عن إدارة شئون المنزل، هي التي تطبخ وتعسل وتجري الحسابات وتنظيم عاملات النظافة التي نراهن كل إثنين من كل أسبوع، وتصادف الاحتفال بذكرى عيد الميلاد يوم الثلاثاء، وإنها الصدفة سعيدة.

-كل عام وأنتِ بخير يا صغيرتي

-وأنتِ بخير يا سيدة الجمال.

ابتسمت في خجل واضح وقدمتني إلى الحمام وكأنني سيدة القصر التي تفتتح محل حلويات شرقية، ضحكت من أعماقي وأغلقت الباب وتأملت نفسي أمام المرآه

أنا ريم ،، اليوم أتم خمسة وعشرين عاما ،لا أعمل ، شبيهة بخالتي كثيرا، طويلة القامة مثلها، ولكن- كما يقول خالد - انني جميلة الجَمال العربي الأخاذ ، العيون بُنية واسعة ، الشعر أسود لامع وطويل وكثيف ، قمحية البشرة، نهداي متوثبان في ثورة ، أميل بجذعي يمينا ويسارا فأرى أنوثة مميزة ، تعافيت كثيرًا من حادث أليم قد حدث في الماضي ، لا اذكره تحديدًا ، وبسبب العلاج الطبيعي ، و ترددي المستمر في المستشفى لمدة كبيرة ، تعرفت على الشاب الوسيم والطبيب خالد ، ممشوق القوام ، زينت وجهه لحية خفيفة ، يرتدي نظارة طبية ، قمحي البشرة ، انجذبت له دون مقدمات عندما لاح لي في الأفق البعيد ، سنوات من المقدمات وبدايات التعارف تلاشت ، وكان ذوبان روحينا في بوتقة الحب العجيبة، هيدي تعجبت من تلك العلاقة ، وعندما طلب يدي اعطيته كل روحي ، اعتقد أننا تلاقينا في عالم الذّر من قبل ، وتعاهدنا أن نتلاقى مرة ثانية على الأرض عندما تسمو أرواحنا في أجساد بشرية ولأن لابد لآدم أن يجد حواء ، كان من الضروري أن يبحث خالد عن ريم وقد كان.

الليلة ستحبل بالعديد من المفاجآت وستكون مليئة بالهدايا، رغم ان الحضور لن يتجاوز أربعة أفراد، هيدي وصديقاتها ناهد وابتسام وبالطبع خالد، تمر الدقائق ببطء، والشمس تغرب، والجو يزداد برودة ولكن دفء القلوب له سحر خاص، وها هي المفاجأة الاولى. كعكة متوسطة الحجم، عليها صورتي وكُتب عليها كلمات بسيطة:

(معًا. العام القادم. نحتفل في بيتنا)

ابتسمت في فرح وسعادة عندما حضر الوسيم متألقا في حلته الرسمية ، قبّل يدي في حب ولاحظ الجميع خجلي وتورد وجنتاي ، وبالرغم من كل هذا الفرح والحب والسعادة إلا أن هناك شيء غامض لم افهمه من نظرات متبادلة بين خالد وهيدي ، وجاءت المفاجأة التالية، هدية مُغلفة بغلاف لامع محيطة بشريط وردي اللون ، عرفت من هيئته وحجمه أنه كتاب ، خالد يعلم شغفي بالقراءة وخاصة القصص القصيرة والروايات الغامضة ، كنت كالطفلة الصغيرة من شدة الفرحة بالمفاجأة الغامضة ، فككت الشريط وألقيت بالغلاف اللامع لأجد عنوانا غريبا "الظلام البارد"!، جذبتني صورة الغلاف، كان عبارة عن صورة سوداء أو بمعنى أدق ظل أسود لامرأة تحمل رأسها بين ذراعيها ، والخلفية باللون الأحمر القاني ، واسم المؤلفة (روان أحمد) ، دار غموض للنشر والتوزيع ، كنت اتطلع إلى هذا الكتاب بشيء من الريبة ، والنظرات تحيط بي من كل جانب، صمت مخيف من الجميع لا يتناسب مع يوم مثل هذا ولا حفلة مثل تلك ، انتبهت وسألت في تعجب : ماذا هناك ؟

وكأنهم كانوا أمواتا فأحييتهم بسؤالي ودبت فيهم الروح وتنفسوا الصعداء، حاولت أن افتح الكتاب لكن خالد أوقفني في رعب، وقال مداعبا:

ليس هذا وقت قراءة. هناك هدية ثالثة. أغمضي عينيك.

استجبت على الفور وأطفأت نور عيني بملء رغبتي حتى أضاءتا على رؤية قلادة ذهبية ناعمة رقيقة تحمل في وسطها حرف R باللغة الإنجليزية، قفز قلبي لتلك المفاجأة، وانتظرت كلمات المدح والثناء من الجميع فلم احصل عليها، نفس النظرات المترقبة والصامتة لأمر ما.

ماذا حل بكم؟

ضحكوا من شرودهم وطلبت هيدي الاحتفال واطفاء الشموع.

***

" عزيزي القارئ، هذه مجموعة من القصص القصيرة ولكنها جديدة من نوعها، انها قصص قصيرة ورواية في نفس التوقيت، قصص تحكي عن شخصية خيالية ولكن خيالك سيجعلها واقعية، قصص غير مترابطة وعليك أن تربط بينها ، تركت لك القسم الأخير بصفحات فارغة، لأنك أنت الذي ستكتب النهاية، إذا لم تعرف، اتركه لغيرك "

قرأت تلك المقدمة وتعجبت جدا من هذا الأسلوب، هل هو أسلوب جديد في النشر؟ ثم منْ روان أحمد تلك؟ لم اسمع بها من قبل؟ ولم اسمع بدار النشر هذه أيضا، تحركت سريعا عبر صفحات الكتاب لأجد بالفعل الجزء الأخير ذو صفحات فارغة!، كيف؟ على الرغم من غرابته إلا أنه مثير وشديد التحفيز والتشويق، الآن تشير عقارب الساعة إلى الثانية عشر بعد منتصف الليل، فقد غادر الجميع اليوم سعداء وبالأخص خالد، بالرغم من النظرات المرتقبة بينه وبين هيدي، كان هناك أمرا غامضا غير مفهوم، كنت أظن أن هناك مفاجأة رابعة من خلال تلك النظرات، انتظرت ولم يحدث شيء، سراب، تبخر حلمي وانطفأ مثل الشموع التي اطفأتها في غيظ مكتوم، لم يلاحظ أحد ذلك، ببساطة لا أريد تعكير مزاجي ولا إفساد يوم مثل هذا اليوم أشهد فيه للجميع بأنهم بذلوا قصار جهدهم ليسعدوا قلبي.

أفقت من شرودي واضأت أباجورتي، وامسكت بالكتاب الغامض، فقد عاهدت نفسي أن ابدأ عامي الجديد بقراءة هذه القصص ولكن ليكن ذلك بعد منتصف الليل،

عشرة. تسعة. ثمانية. سبعة. ستة. خمسة. أربعة. ثلاثة. اثنان. واحد.

في اللحظة التي فتحت فيها الكتاب، غضبت السماء وأطلقت شرارات غضبها على هيئة بروق ورعود، وأمطار غزيرة. هطلت بشكل مفاجئ.

يبدو أن هناك اتفاق غامض بين مؤلفة القصص الغامضة والسماء في بث الرعب والخوف. ولكن. لا يهم.

القصة الأولى بعنوان (المصير المجهول).

(المصير المجهول)

وقفت ذات العاشرة من عمرها على باب الطائرة، نظرت خلفها في حزن؛ لعلها تحظى بابتسامة وداع أو تحية من القلب أو نداء أخير بالتراجع ولكنها لم تجد أحدا، لم تجد إلا دموعها تتساقط من محجريهما لتتركها في وطن غير مُرحب بها، جلست الصغيرة على مقعدها تفكر.

حدثت حادثة سيارة منذ أكثر من عشر سنوات في إحدى دول الخليج، وكانت الحادثة لأحد المغتربين، نُقل على أثرها إلى المستشفى ، ومع اهتمام إحدى الطبيبات حدث ما يُسمى بالحب العابر ، وكان ثمرة هذا الحب جنينا في رحم الطبيبة لم تُخبر به أحد وخاصة أن الحبيب العابر قد سافر عائدًا إلى بلاده غير مبالي ، ويشاء القدر أن تقص حكايتها لصديقه والذي

بدوره تأسف لحالها وتعهد بمحاولة حل هذه المشكلة ، ولكن القدر كان له تصريفا آخر فقد توفت الطبيبة الشابة هي أيضا ، وبقيت ثمرة الحب العابر في أحضان حديقة الصديق حتى تكبر وتنمو في بيئة صحية .

علم المغترب سابقا بقصة ابنته من خلال مكالمة صديقه رغم بُعد الأماكن وغياب السنوات الطويلة، أُسقط في يده ووقع تحت براثن الحيرة والشفقة على ثمرته التي لا ذنب لها، ولكن سرعان ما أخبر زوجته وابنته بالأمر، وكان رد الفعل غير متوقعًا، فقد صُدم لرفض أسرته الصغيرة باستقبال هذه الغريبة، والسؤال الذي كان كالخنجر وطعنه في قلبه: من أدراك أنه من صُلبك؟، خيم الحزن والألم على عقله وقلبه ومع ذلك أصر على استقبال صغيرته.

هبطت الصغيرة في حضن والدها، وجه الشبه بينهما كبير، لسنا في حاجة إلى تأكيد، ولكن من الناحية الأخرى، توترت قلب الزوجة.ة في حيرة من أمرها، كانت بين مطرقة وسندان، بين خيانة قديمة لزوجها، ويتيم لا حيلة لها ولا ذنب لها فيما اقترفه ابوها.

وبدون عاطفة تم استقبال الضيفة الجديدة، شعرت هذه الصغيرة بالجفاء والبرود وتمر الايام والأسرة الصغيرة تحاول بكل قوة طرد هذا الضيف، فهمت الصغيرة مرادهم وحزمت أمتعتها وقررت العودة.

جلست الصغيرة على مقعدها في الطائرة وقلبها يصرخ من الحزن.

أحبك يا أبي

ولكن لمن أعود؟

في صالة الوداع بالمطار، جلس الأب مكلوما.حزينا.باكيا رغما عنه، وسمع صوت بكاء من خلفه، استدار ليجد زوجته وابنته تظهران الندم على فعلتهما،

ولكن ما الفائدة؟

فقد حلقت الطائرة بالصغيرة إلى المصير المجهول.

***

المجهول هو الرعب الحقيقي لكل إنسان، بكيت بحرقة على تلك الصغيرة، لم أكن أحب أن أستقبل عامي الجديد بتلك البدايات المؤلمة، لكني شعرت بأن شيئا خفيا يحيط بي ولا أعلم ما هو، شعرت لوهلة أنني المقصودة بهذه القصة، اضطربت وخفق قلبي عند سماع أصوات أقدام تسير قريبة من غرفتي، لابد انها هيدي، أرى ظل على الأرض يتسلل خفية تحت عقب الباب، لماذا هذا التوتر؟ ماذا هناك؟ سمعت صوتها يهمس في خفوت ، وبدون ان اقصد وقع هاتفي النقال على أرضية الغرفة بعد ما اصطدم به الكتاب أثناء اعادته إلى طاولة السرير الجانبية ، سرعان ما انطفأت الإضاءة الخارجية ، واختفى الهمس ، وتبخر كل شيء عدا امطار تلك الليلة ، حاولت العودة لهذا الكتاب الغامض ولكنني سمعت صوت أزيز باب يتحرك ببطء، هل هو بالفعل موجود هذا الازيز أم أنه في خيالي فقط ؟ ، عادت السماء تغضب من جديد ، برق، رعد، مطر، باب يُغلق بعنف وغضب في الشارع ، شهقة مكتومة خرجت من أعماقي ، وبعد أن هدأ قلبي واستعدت توازني حدث ما لم يكن على البال ، رن هاتفي النقال بشكل مفاجئ أفزعني ، نسيت أن اقوم بتحويله إلى النمط الصامت، وقبل أن تمتد يدي كان قد صمت ، مخلفا وراءه مكالمة فائتة MISSED CALL

ظننت انه خالد يريد الاطمئنان علىّ بعد تلك الليلة، ولكنني فتحت الشاشة لأجد

لا رقم NO NUMBER

ما الذي يحدث هنا؟

انتظرت دقائق بدت لي وكأنها ساعات، دون أي رد فعل، اهتزاز الهاتف النقال أفزعني مرة أخرى، اندفعت الدماء إلى رأسي وأجبت

من؟

.....

من المتحدث؟

....

سأغلق الخط

(صوت موسيقى تنبعث من بعيد)

الووو...

أصغي لهذه الموسيقى

ضحكات صاخبة تقترب. مما جعلها تزيد من اهتزاز جسدي ورجفات قلبي ثم أغلق الهاتف على الجانب الآخر من الخط.

لا أعلم ماذا أفعل؟ هل اذهب الى هيدي؟ هل اتصل بخالد؟ فكرت قليلا، ثم قفز إلى رأسي فكرة: قد تكون معاكسة من هؤلاء الذين لا ينامون ليلا كباقي خلق الله؟ شياطين الإنس.

هدأ عقلي لهذا الخاطر وأغلقت هاتفي النقال. حاولت أن أغمض عيني، لكن تلك القصة راودت تفكيري مرة أخرى وفجأة، ظهر شبح تلك الفتاة

الصغيرة. كأنني أراها. فتاة لا يزيد عمرها عن العشر سنوات تقف على باب منزل، عيون حزينة، معها حقيبة متوسطة الحجم بها ملابسها البسيطة، وشنطة أخرى بها كتبها المدرسية وتركب سيارة، انها تنتقل لبيت آخر وحياة أخرى.

كانت البداية. البداية فقط.

***

-بداية مرعبة، لماذا ذكرت اسمك في الرواية؟ سأله صديقه.

-ألم أقل لك أنها حقيقية، ثم إن خالد هذا في الرواية يمثل جانب مهم من حياة ريم، باختصار هو الأمان.

-هل تعني أن ريم لم تكن تعرف الأمان من قبل؟

نظر له خالد وبنظرات ثاقبه كأنها أوامر قال:

لا تتسرع ولا تقفز فوق الأحداث، نحن بالكاد نبدأ الأحداث، في تلك الليلة تحديدًا بدأت حياة ريم تأخذ منحنى آخر.

الفصل الثاني

20 يناير

مازالت السماء ملبدة بالغيوم، البرودة تحيط بنا من كل جانب تضرب حولنا الحصار، تدثرت بملابس ثقيلة وقمت متكاسلة من فوق سريري، صداع رهيب أيقظني من نومي، ولماذا لا يوجد صداع؟ ما حدث ليلة أمس من حصار القصة وشبح الفتاة والمكالمة الهاتفية المريبة و... لا. لا. لابد أن افتح الهاتف. أووه. لقد نسيت.لابد وأن خالد اتصل بي مرارًا وتكرارًا. وإن كان لا يبدو ذلك، فهيدي لم تقتحم غرفتي في قلق، أيكون اتصل بها فدلفت بهدوء ووجدتني نائمة فطمأنته علي؟، ها هو الهاتف يستيقظ متأخرا مثلي، ألقيت نظرة على الكتاب، هممت بأن افتحه لأقرأ قصة أخرى من هذه القصص الغامضة، ولكن ليس الآن، انه وقت الفطور والقهوة الداكنة وفيروز وحكايات هيدي، هاهاها، حكاياتها دائما مسلية وتحكي قصص غريبة ومضحكة، أين السلسلة؟ لقد وضعتها في مكان ما، تبًا لعقلي، كثير من الهذيان والنسيان ولابد من استشارة الطبيب في هذا الأمر، ها هي، وجدتها في أحد أدراج الكومود المجاور للفراش ، أين علبتها؟ لا يوجد علبه! غريبه!

-ريم

النداء اليومي لهيدي

-قادمة

النداء الآلي لريم

على الفور خرجت من غرفتي إلى الحمام وما إن واجهت مرآتي حتى لاحظت احمرارا خفيفا في بياض العين، لابد أنه من الصداع، قرصان من البنادول يطرد هذا الضيف الغير مرغوب فيه.

-ريم

-صباح الجمال يا قمر الليالي

ضحكت هيدي وبابتسامة عذبة على شفتيها قالت:

اممم، يبدو أن المزاج رائق مثل السماء الصافية

-واااااو، تقولين الشعر! جديد هذا الأسلوب.

-ها ها. ولِمَ لا؟ ألم يهاتفك خالد أمس أو اليوم

-تذكرت. حدث أمس شيء غريب. اتصال هاتفي مجهول المصدر وبلا رقم اقتحم خلوتي وارتعبت وبعدها اغلقت الهاتف.

توترت ملامح هيدي وأسرعت:

من هذا؟

-لا أحد. اعتبرتها معاكسة هاتفية أو اتصالا خاطئا. ليس لي أعداء يا سيادة وكيلة النيابة.

ابتسمت هيدي في خفوت ولم تضحك وكأن هناك أمرا تخفيه، ثم سألتني: هل نمتِ جيدًا؟

أكيد. أمس كان يوما مرهق وشاق ولم أشعر بنفسي وخاصة بعد قراءة أول قصة من الكتاب. رأيت شبح للطفلة التي قرأت عنها وكأنني أعرفها. غريب أن يحدث تواصل وتوحد بهذا الشكل! وتأسفت لنفسي واخبرتها انه من الإرهاق ونمت.

كانت هيدي تتأمل كلامي بحرص شديد لدرجة أنها توقفت عن الفطور وقامت لإعداد القهوة وكأنها لا تريد مواجهتي أو تخفي عنّي وجهها حتى لا اقرأ ما ظهر عليه من قلق خفي، كان البخار يتصاعد من فنجاني القهوة فوق الطاولة وكانت تنتشر في المطبخ رائحة طيبة هي رائحة النظافة والانتعاش، جلسنا إلى المائدة مثل طفلين يلهوان بعفوية، يرتشفان القهوة الساخنة برشفات طويلة وصاخبة، كأننا متنافسان مَن منّا يتفوق على الآخر برشفته، انتهى اللهو وعدت إلى الجد وسألت هيدي:

هيدي. هل هناك شيء؟ منذ أمس وأنتِ تتصرفين بسلوك غريب. ما الذي حدث؟

استدارت هيدي وضحكت ثم نظرت وقالت في ثبات:

نعم. هناك شيء خفي. والسبب خالد.

دق قلبي في عنف، ما الذي حدث مع خالد؟ هل أصابه مكروه؟ لقد كان كل شيء على ما يرام بالأمس! هل تغيرت الدنيا بين ليلة وضحاها؟

لاحظت القلق قد اكتسى ملامحي فقالت على الفور قبل أن اسأل:

خالد يريد تقديم موعد الزفاف والزواج

تنفست الصعداء وخرجت أنفاسي حارة في ضيق بعد أن كانت مكتومة داخل صدري كالفرن. انها المفاجأة الرابعة التي كنت في انتظارها

سألت: متى؟

أجابت في توتر غير مفهوم:

19 فبراير القادم

-ماذا؟

***

بالرغم من السعادة الغامرة التي اعترتني بعد معرفة قرار خالد ، إلا أنني ما زلت مُتعبة جسديا، تناولت قرصين من البنادول وتناولت هاتفي واتصلت بخالد فقد قررت عدم الخروج الليلة معه وسوف يعذرني لكونه طبيب.

-سمعت أخبار مثيرة اليوم

-كيف؟

-تريد تقديم موعد الزفاف هاهاها

-لم تضحكين؟

-ولماذا التقديم؟ هناك أمور كثيرة لابد من الاستعداد لها، وحددنا موعد مناسب ثم لماذا 19 تحديدا

صمت خالد ثم قال بنبرة جادة:

الشوق والحب هما من يتحكمان في مستقبلنا

-نعم؟

-نعم! ماذا؟ ما الغريب؟

-المفاجأة نفسها غريبة. إذا أردت الزواج بالفعل فليكن في مايو المقبل

-غريب! ظننت أنك سوف تطيرين فرحا بهذا الخبر

-لا أحب الزواج في الشتاء

-الشتاء ليس فصل موسمي مؤقت. موجود معنا طول العمر و..

قاطعته:

وخاصة فبراير

-لماذا؟

لم أرد وبعد عدة دقائق من الحوار الذي صار جافا اغلقت الهاتف تماما وشرعت في إنهاء بعض الأمور التي تتعلق بالبيت قبل الاستعداد لقراءة قصة جديدة من قصص المدعوة روان.

***

(رسائل)

(الساعة 4 عصرًا في الشارع)

كان مستقلاً سيارته عائدًا إلى بيته بعد يوم طويل شاق في العمل ، لم ينم جيدًا منذ أمس فقد كان عقله مشغولاً بالصفقة التجارية الجديدة، نزل أرض المعركة وانتصر فيها على خصمه وفاز بالصفقة التي سوف تنقله نقلة مادية متميزة مستقبلا، كان طريق العودة مزدحما فاستغل وقوف السيارة في الإشارة الحمراء ليشاهد الرسالة التي أتت إليه في هاتفه، رسالة من رقم مجهول ، قرأ الرسالة وابتسم في سخرية و ظنّ في البداية أنها مزحة ثقيلة ، غاب عن الوعي لبُرهة من الوقت وشرد بعيدا للحظات ، لم يفق من

غيبوبته المؤقتة إلا بصراخ الناس من حوله فقد تحولت إشارة المرور إلى اللون الأخضر ليعبر إلى دوامة سوداء ، صرخت عجلات سيارته من شدة احتكاكها بالأرض وكأنها متضامنة معه في غضبه الذي أشعل قلبه وعقله ، وبسرعة جنونيه عَبَرَ كل حواجز الأمن والسلامة وتخطي كل حدود قواعد المرور ، جن جنونه عندما وجد ازدحاما آخر ، فقد صفة الصبر وهو على الطريق لينحني بسيارته إلي اليمين و يرتطم بعنف بإحدى الشاحنات الكبرى ، تهشمت واجهة السيارة تماما ، فتح الباب ببطء شديد ليتدلى جسده المدمى بالدماء على الأرض ممسكا بيده اليمني هاتفه المحمول ، بصعوبة همّ أن يتصل بأحد .

(الساعة 4 عصرًا في مكان آخر)

كانت تُحضر وجبة الغداء لزوجها التي تحبه ،فقد هاتفها منذ ربع ساعة يطلب منها إعداد الطعام لينام بعدها مباشرة فهو مُرهق جدًا ولم ينل قسطا وافرًا من النوم بالأمس، وما إن وضعت آخر طبق على سُفرة الطعام حتى سمعت صوت إشعار بوصول رسالة ، عقدت حاجبيها عندما وجدت الرسالة من رقم مجهول ، فتحت الرسالة وشهقت من الصدمة ، لم تتحمل ولم تصدق ما قرأته ولكنها استسلمت وخفق قلبها عندما قرأتها ، قامت من مكانها بصعوبة وكأنها تحمل على عاتقها جبال الدنيا كلها، قامت بتغيير ملابسها على عجل وخرجت من شقتها وليس معها إلا هاتفها المحمول ، لأول مرة تلاحظ أن درجات السلالم كثيرة وأن باب الخروج بعيد والأكسجين يتناقص من حولها و رئتيها تكاد تلتصق ببعضها من شدة الاختناق التي تشعر به، وصلت إلي الباب أخيرا وقفت على ناصية الطريق لتشير لأي سيارة أجرها لتهرب بها من قلبها، حتى رن جوالها من هاتف زوجها وبعيون باكية أجابت.

(الساعة 4.20 عصرا)

أجابت الزوجة زوجها وروحها بلغت الحلقوم، سمعت أنينا مكتوما اتسعت عيناها رعبا، حاولت حث زوجها على الكلام، ولكن بلا جدوى، لم تسمع منه غير كلمة واحدة، كلمة فقدت الوعي بعدها.

(الساعة 4 عصرا في مكان ثالث)

في تلك اللحظة كانت تجلس فتاة في أوائل العقد الثالث من العمر، كانت تلك ساعة الصفر التي انتظرتها منذ سنوات بعيدة، أرسلت الرسالة الأولى للزوج كتبت فيها:

(زوجتك حامل ولكن ليس منك) أعقبتها رسائل تحتوي محادثة منتحلة صفة رجل مع زوجته

[انا أعرف أنكِ قد أصبحتِ حاملاً منذ آخر لقاء بيننا]

[أرجوك أن تتركني وشأني فأنا امرأة متزوجة وأحب زوجي ويكفي ما حدث]

وبعد لحظات أرسلت رسالة إلى الزوجة كتبت فيها:

(زوجك تزوج عليكِ لأنك لم تنجبي له الطفل الذي يتمناه منذ خمس سنوات).

تلتها رسائل هي محادثة بينها وبين زوجها وهي تنتحل صفة الصديقة الخائنة

[أرجوا أن تقابلني في نفس المكان الذي رأيتك فيها لأول مرة فعندي لك خبر سار]

[حسنا. سأنتهي من عملي في الرابعة وأحاول مقابلتك أثناء عودتي للمنزل]

تنهدت بسعادة بعد إرسال تلك الرسائل، إنها صديقة الزوجة. زوج صديقتها كان يتحرش بها في الماضي ، تأذت كثيرا من جرأته وعنفه ، الزوج في الأصل تربطه بها صلة قرابة فهو ابن عمها ، وهو يكبرها بسنوات، تربت بينهم وعندما كبرت ونضجت وظهرت مفاتنها ، لعب الشيطان برأسه، لم تكن تعترف لأحد بما كان يفعله، لم يغتصبها ، وفي نفس الوقت لم يتركها ، كانت بالنسبة له مجرد وسيلة للتسلية ، فتاة لا أهل لها وهي عالة عليهم ، ظنت انه بعد الزواج سيتغير ، ولكن اتضح أنه مريض نفسيًا ، لجأت لحيلة ، صادقت زوجته ،أرادت الانتقام لكرامتها، صارت صديقة العائلة طوال تلك السنوات وكلما توطدت العلاقة كلما اقترب موعد الانتقام ، علمت أنه لا ينجب ،وأن الحياة توترت بينهما ،ولأنها تعرف أسرارهما استغلت كل الخيوط للإيقاع بهما في شباكها والثأر لنفسها.

***

طقطقت هيدي أصابعها فانتبهت وكأنني كنت غارقة في سبات عميق أشبه بالتنويم المغناطيسي، هكذا أخبرتني هيدي بما رأته وسمعته، الحكاية أنها طرقت الباب عدة مرات بلا استجابة، وسمعتني أهذي بعبارات وكلمات غير مفهومة، دخلت الغرفة وهي قلقة، قالت:

وقفت أمامك أنادي عليك. ريم. ريم. لا استجابة. كنتِ في حالة ذهول، عيون مفتوحة، ثابتة، كأنك تمثال لا حياة فيه، تقولين عبارات غير مفهومة مثل

(يستحق القتل)

(ليست هي المقصودة)

(علاء. علاء. علاء)

حاولت انبهك، وضعت يدي فوق كتفيك، لا فائدة، حالتك يُرثى لها، طقطقة الأصابع أعادت لكِ انتباهك وتركيزك. ماذا حدث؟

-هيدي

- نعم

- السلسلة الذهبية التي جاءت أمس كهدية من خالد

- ماذا عنها؟

- لقد رأيتها من قبل

- وماذا في ذلك ؟!

من الوارد جدًا أن يحدث هذا، من الجائز أن تكون معا في يوم ما ورأيتِ هذه السلسلة وأعجبتك وخالد لاحظ هذا وقام بمفاجئتك في عيد ميلادك و.

قاطعتها:

لا. كانت هدية من شخص اذكر ان اسمه علاء. كان يتودد إليّ قديما. ويبتزني. وقدمها هدية يوما ما. ورفضتها.

صمتت هيدي. لم تتحدث. ألجم لسانها وأطبق فمها. تسمرت في مكانها بنظرات رعب تجاهي. هناك أمر غامض يحدث.المشاهد التي رأيتها في فضاء الغرفة التي تحولت إلى شاشة سينما لم تكن تكذب. أنا مريضة. ولكنني إلى حد الآن لا افهم شيئا.

***

روحي كانت هائمة في فضاء الكون، حتى هبطت كالطائر المشتاق لقوت يومه، دخلت مدينتي، بعد سنوات طويلة من الغربة في عالم الأكوان، أعود ثانية إلى هذا الشارع القديم، دخلتها خائفة اترقب، ملامحي تقول هذه ليست مدينة الماضي التي كنت اعرفها حق اليقين، هذه عمارة اعمامي، لكن، منذ

متى تم بناء هذه المباني أمام العمارة هكذا في وسط الطريق؟ مَنْ شوّه جمال الطريق العام؟ المباني الكئيبة حلّت محل حديقة الماضي، كنّا أنا وأولاد أعمامي نجتاز سور الحديقة ونلهو ونلعب، لماذا دمروا ذكريات طفولتنا؟ ماذا يريدون منّا هؤلاء العجزة؟ أين الهدوء؟ ما هذا الصخب الذي يُدوي الأذان؟ لماذا يتعاركون؟ الأيادي تمتد إلى وجوه بعضهم البعض في عنف، لا.هذه مدينة الأشباح، ليست مدينتي أبدا، سأذهب إلى بيت عمي، نعم هو فقير لكنني أحبه، كل شيء من حولي رمادي اللون، لا أريد الاستيقاظ من هذا الكابوس، ماذا؟ إنهم يصلون خارج المسجد؟ هل المسجد ممتلئ إلى هذا الحد؟ لحظة.إنهم يقيمون الصلاة وبنظرة بعيدة عن المسجد وجدته مغلقًا، لمحت رجل ذوه هيبة ووقار، في العقد الخامس من العمر، يرتدي قميص أبيض وعلى رأسه عمامة بيضاء، قسمات وجهه تدل على أنه رجل صالح، أناديه ب عمي، أتعجب من أنني أعرفه، عمي هناك في أول الصف، جيد.سوف أنتظره حتى يفرغ من صلاته، لقد انهوا صلاتهم

(صلاتك غير صحيحة. من فضلك لابد من إعادتها)

كان هذا صوت عمي وهو يخبر الإمام، ما هذا الذي أراه؟ استشاط الإمام غضبا وقام من مكانه ووقف يتمتم بألفاظ غير مسموعة، ويكز على أسنانه والعيون تلمع بغضب الشيطان صرخ في وجه عمي:

ومن أنت لكي تقول صلاتي صحيحة أم باطلة؟ وهم برفع كفه ليصفعه على وجهه، ولكنني سرعان ما سيطرت على الأمر، وأمسكت بيدي اليسرى باليد الجائرة عن الحق وكوّرت قبضة يدي اليمني وقبل أن تدوي كالقنبلة على فك هذا المنافق كان عمي قد أمسك بها وصرخ في وجهي طالبا العفو عند المقدرة، ألجمت لساني بصعوبة، أي عفو هذا الذي تريده يا عماه؟ مدينة الأشباح ليست بها عفو...لأننا فقدنا المقدرة، عدت إلى أدراجي بعد أن أوصلته لبيته سالما غانما، قدماي أخذتني إلى ميدان بوسط المدينة ووقفت في منتصفها وبصري شاردا يمينًا ويسارًا، أتأمل حال الناس الذي أختلف عمّا مضي، وسؤالي يطوف حول رأسي غير مهتديا لحجره الأسود

وماذا بعد؟ ماذا تبّقي يا مدينة الماضي لكي ننقله للأجيال القادمة؟ أفقت من شرودي وخيبة أملي على سرينة سيارة المطافئ، كانت كالسكين الساخن وهي تخترق الطريق، ماذا حدث أيضا؟ هكذا حدثت نفسي ..هرولت خلفها بقدر ما أستطيع ، كنّا صغارا نسبق الهواء أما الآن ..لا يهم ، أنفاسي تتقطع ، الأكسجين ناقصا في رئتاي ، القلب يدق بعنف ، الجسد هالك لا محالة ، وصلت بعد فترة وجيزة إلى الهدف ، كان هناك زحاما كثيفًا ، لا يسأل المزيد ، اكف تضرب بعضها فوق بعض ، الحوقله على الألسن مسموعة بوضوح ، أحاول بما تبقي لي من جهد وقوة اختراق يوم الحشر ، لأتسمر مكاني ، صعقت لهول المشهد ، العبَرات انهمرت من محجريهما ، زادت عُقدة لساني كانوا رجال الإطفاء يحاولون بكل ما يملكوا من أدوات إخماد حريق أقدم مكتبة تاريخية في مدينتي.

هبت من نومي دفعة واحدة بأنفاس متلاحقة سريعة، وحلق يابس، وفم مفتوح على اتساعه يتسول الهواء، صرخة مكتومة من هول الكابوس واستيقظت وصدري يعلو ويهبط في جنون، هيدي جاءت مسرعة من غرفتها وعلى وجهها علامات الفزع.

ناولتني كوبا من الماء. تجرعته في مشقة، الهدوء يسري داخل خلايا جسدي، نظرت إلى هيدي وسألت كان السؤال يخرج بصعوبة من حلقي مثل الروح التي بلغت الحلقوم:

من هذا الرجل الذي رأيته في الحلم وادعوه بـ عمي!!

***

-بداية العقدة؟ سأل صديقه

- لا، بل بداية المعرفة بالعالم الخارجي، أخبرك سرا، ريم لم تُولد يوم 19 يناير وهذا ما سوف تعرفه فيما بعد.

فغر صديقه فاه لهذه المعلومة المباغتة، وحاول أن يتكلم ويسأل حتى بادره خالد:

ستسأل: وكيف عرفت؟ ما رأيك في كوب من الشاي الساخن في هذا اليوم البارد؟ اليوم مازال طويلا والحكايات مازالت كثيرة.

الفصل الثالث

22 يناير

يومان بلا روح، مثل كل صباح، أقف أمام مرآتي أرى أشباحا تحوم حولي، الدماء تفر من جسدي رويدا رويدا، نظرات هيدي لم تعد تُحتمل، ابتعاد خالد المفاجئ لم افهمه، القصص التي سطرتها تلك الكاتبة المغمورة يُلقي بي إلى التهلكة رويدا رويدا، مساحة البيت تضيق، والسحب لا تزال متماسكة في مواقعها، السماء أصرت على الاختفاء كأنها تخجل من مواجهتي، من هو عمي؟ وأين أقاربي ؟، حاولت أن أتذكر وأن أعصف بذهني، لكن المحصلة كانت صفرا، هناك رابط خفي تربطني بهذه القصص أو بهذه الرواية المبتورة المكتوبة على شكل قصص منفصلة، أتى المساء بغموضه المعتاد وعندها عدت إلى غرفتي وأغلقت الكهرباء وتقوقعت داخل سريري وشرعت في القراءة، عليّ أن أفتش بين صفحاته المقبضة عن شيء غامض لعله يدلني على أمر مفيد في موقفي هذا.

***

(نائمة إلى الأبد)

زقزقة عصافير بالخارج فوق أغصان الشجر، سلاسل شعاعية ذهبية آتيه من الشمس تخترق نافذة زجاجية كبيرة مفتوحة، ستائر تتحرك برقة ، تحركها رياح ربيعية لطيفة، الغرفة واسعة ، لون جدرانها ينم عن ذوق

رفيع ، سرير يغطي مرتبته فراش حريري سماوي اللون ، عليها يغط ملاك في سبات عميق ، كعادته كل صباح ، يجلس (هشام) أمام زوجته وهي نائمة ، يدنو منها ليستنشق عبيرها ، يضع أشواقه على شفاهها برقة وعذوبة ، وبهمس يتغنى بكلمات الحب والعشق في جمالها، ، وفجأة ينقلب الحال، ينقلب السرير إلى منصة محكمة، هشام داخل القضبان ، الشباك الصغير المُعتم لا يسمح بدخول أي أشعة شمسية ، نعيق الغراب أعطى طقس تشاؤمي بامتياز. هشام هذه المرة يترافع في محكمتها لتبرئة نفسه وبدون صخب خشية إيقاظها فقال:

حبيبتي، أنا لست خائنًا، صدقيني، عندما اندمجت روحي بروحك يوم اللقاء الأول وأنتِ كل كياني، أنا لم أفكر في غيرك أبدًا، وهل يجوز الحياة بعد الموت عشقًا في عينيكِ سيدتي؟

إذن فكيف لي الإبحار في بحار أخرى وسفينتي ترسو على شاطئ بحرك مولاتي؟

لا أدري كيف تسلل الشك كاللص إلى قلبك؟ إنه شيطان مريد نرجمه بالحب، أعرف أننا أقمنا سورًا من الهوى لحمايتنا من شياطين الإنس، ولكنه يبدو أنه لم يكن محصنًا بالقدر الكافي، أعدك أن أُفرغ عليه مزيدا من الحب والعشق ولن يستطيعوا له نقبا، ما حدث كانت وقيعة حقيقية، كنت مخدوعًا بهؤلاء الذين سولت لهم أنفسهم باقتحام حياتنا على أنهم أصدقاء، بل تلاميذ.نعم.ظننت أنهم يطلبون التعلم من مدرستنا،

من مدرسة العشق، صدقيني، لقد غُرر بي، أنا أصدق أنهم خدعوكِ، تم استغلال أجمل ما فيكِ.قلبك.أنا مؤمن أنكِ ستنظرين إليّ بعين الرحمة وبروح الحب وسعة القلب وسوف تظهر براءتي ونحتفل معًا ونغرد أنشودة الحب.

ما إن أنهى مرافعته حتى عادت العصافير تزقزق في فرح، وعادت النافذة إلى حجمها الطبيعي، وذابت الأسوار الحديدية التي كانت تكبل معصميه، وتبخرت القضبان، وأصبح له الحرية والمساحة كي يسير على أريحية، هدأ قلبه وانتظمت أنفاسه وابتسم لها ابتسامة مليئة بالحنان ومال نحوها يطبع على شفتيها قبلة حارة.

تبدل الحال مرة ثالثة في لحظات، وظهرت الحقيقة، غرفة عادية شبه مظلمه، ذو مساحة ضيقة، وستائر بالية ممزقة، وشباك مُغلق منع الهواء والشمس والحياة من الدخول، وفجأة، اقتحم رجال الشرطة الشقة؛ ليجدوا أمامهم رجلاً يبكي، وجسده يرتعد رعبا، يهز رأسه بعصبية وخوف؛ غير مصدق ما يراه، ويتساءل: هل انكشف المستور؟

اشتكى جيرانه من أنهم يسمعون يوميا أصواتًا، هي محادثات بصوت رجل يتحدث إلى زوجته، أحيانا تكون أصواتا هامسة غير مفهومة كأنها طلاسم، وتارة صاخبة وكأنه يدافع عن نفسه، وكثيرا ما تتحول إلى الصراخ والبكاء والنحيب والعويل.

دقوا جرس الباب عدة مرات ولكن بلا إجابة، حاولوا الوصول لزوجته لكن محاولاتهم باءت بالفشل الذريع، ظنوا أنه وحيد وقد مس عقله الجنون، وخاصة أنهم لم يروا زوجته منذ أسابيع عديدة.

كان المشهد مروعًا، فقد كانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي رأوا فيها مثل هذا المشهد. صعقوا عندما رأوا زوجته كما رأوها أول مرة منذ سنة، كانت وقتها عروسا تُزف إلى عش الحب، مرتدية نفس فستان زفافها.

الفرق هذه المرة أنها كانت نائمة في تابوت زجاجي شفاف. كانت نائمة إلى الأبد.

***

مثل تمثال روماني بلا حدقات وقفت وفي قلبي ألف تساؤل يرتع بحثا عن اجابات، من الغريب أن تتلاشى ذاكرتك بدون داع، لا أذكر شيئا على الإطلاق، الطفولة، المراهقة، الاب، الام، صور قديمة، صداقات، وكأنني وُلدت منذ أيام، ووجدت نفسي مخطوبة ولي خالة وفقط، الأمور بداخلي تتعقد، والخيوط ليس لها أطراف كي أمسك بأي منها، وفي ذلك اليوم حدث شيء غريب جعلني أهبط إلى أرض الواقع ولكن ببطء.

***

-ما رأيك أن نخرج الليلة؟ منذ فترة لم تري الشارع؟

هكذا بادرت هيدي مقترحة وهي تعلم أن ليس هناك رأي آخر وقبل أن أفكر أردفت:

الليلة سنذهب إلى مطعم راق جدا مع خالد وهناك تتناقشين معه أمر الزواج.

إنها مصيدة أو كمين ولم أعترض، وافقت على مضض، لابد من الخروج من هذه العُلبة التي تسمى غرفة ومن حصار تلك القصص اللعينة ومن الصور والمشاهد والأحلام والكوابيس التي بدأت تلوح لي في الأفق من الماضي السحيق.

فتحت خزانتي لاختيار ملابس مناسبة لهذه السهرة الشتوية، تأملت ملابسي جيدا حتى وقع عيني على صندوق من الكارتون المعروف لنقل البضائع موجود أسفل الخزانة، مددت يدي كي أفتح وأعرف ماهيته وما الذي بداخله ولكنني وجدته مُحكم الغلق بلاصق شفاف، بالرغم من الفضول الذي يكاد يفتك بي إلا أنني تركته لحين العودة، اخترت ملابس مناسبة وقبل أن أخرج ألقيت نظرة استفهامية على المجموعة القصصية (الظلام البارد) القابعة على الكومود، تحولت إلى نظرة مليئة بالتحدي ثم خرجت.

كان خالد في انتظارنا وإن كانت ملامحه تحمل بعض العتاب عندما رآني، لم أشأ أن أفسد تلك السهرة بجدال لا معنى له، فسحة مؤقته من تعب الذهن وإرهاق النفس، قفزت داخل السيارة بجانبه واستقرت هيدي في الخلف وبعد تبادل التحية والسؤال عن الصحة سألني خالد سؤال عجيب قبل أن نتحرك:

كيف وجدتِ القصص؟

-ماذا؟

-القصص القصيرة

-ما شأنها؟

غمغم في ارتباك:

-اقرأتِ شيء منها؟

-غريبه

في تلك اللحظة لمحت نظرات رعب تنبثق من عيني هيدي، رأيتها من مرآة السيارة الجانبية، قفز قلبي من مكانه عندما رأيت خالد يبادلها نفس النظرات على استحياء وكأن هناك خطأ ما قد حدث.

سألت: ماذا هناك؟

رد خالد بسرعه: لا شيء

وانطلق بسيارته وهنا وقع بصري على محل يقع على ناصية الشارع وشردت.

***

ما إن لمحت لافتة مكتوب عليها (مكتبة الحياة) حتى شعرت بحنين غريب، وأن الشاب الواقف أمام تلك المكتبة في نفس اللحظة كان قدرًا مُخطط له، شاب نحيف بعيون غائرة، يتخفى نحول جسده وراء ملابس شتوية ثقيلة، ما إن لمحني داخل السيارة حتى اعتدل في وقفته وابتسم ابتسامة باهته، كأنه يريد أن يقول شيئا ما، لم اسأل نفسي لِمَ هو واقف عند باب المكتبة حتى لمحت بين أصابعه سيجارة مشتعلة، لولا تلك السيجارة لكنت ظننت أنه متآمر مع خالد وهيدي، فهناك إشارات وعلامات أصبحت تملأ حياتي وتخنق عنقي وعقلي لم يعد يتحمل.

أغمضت عيني بشدة وظهر هذا المشهد من أعماق الماضي.

***

حرارة شهر اغسطس تؤدي إلى ضيق التنفس وإلى الهرب إلى تلك المكتبة التي تقع على ناصية الشارع، من الجميل أن نجد هناك برودة التكييف المنعشة في الانتظار وكأنها اعتذار رسمي عمّا حدث بالخارج، مكتبة متوسطة المساحة بها الكثير من الكتب والأدوات المكتبية، بها جزء خاص بالروايات والقصص القصيرة ودواوين الشعر، كان حسني يقف على السلم الخشبي ويقوم بترتيب بعض الكتب في الجزء العلوي من المكتبة.

-حسني. كيف حالك؟

-مرحبا آنسة ريم. أنرت

-نورك. كيف تسير الأمور؟

-بخير. كل شيء على ما يرام

-ها. هل من جديد؟

-نعم. كتاب جديد يُولد كل ثانية

-ولادة قيصرية طبعا. هاهاها

هبط حسني من فوق السلم ووقف قبالة ريم يفصل بينهما الدولاب الزجاجي الذي يحتوي على الأقلام المتنوعة ثم أشار تجاه الكتب وأذن بالاطلاع عليها، وفي نفس الوقت، دخلت طفلة تطلب قلما ودفترا. فأشار حسني بكفه علامة المكتبة لكِ. خذي راحتك

وصلت إلى رفوف الكتب واندهشت بعد أن قرأت عناوين الروايات، تنبهت إلى أن معظمها يشترك لغة الدماء والجان والشياطين والقتل، ما هذا؟، ما كل هذه البحور الدموية التي غرقنا فيها؟، وكانت أغلفة الروايات ذات ألوان مريبة، ما بين الاسود المزرق والأحمر القاني والأسود المختلط بالبنفسجي، صور جماجم، عيون دموية، سكين يخترق الرأس. أقترب حسني منّي وقال مبتسمًا:

ما رأيك في هذه المجموعة الجديدة؟

-ما هذه الحروب العالمية الجديدة يا حسني؟

باستنكار سألت مما أدى إلى سماع قهقهه وقال:

السوق تغير

-لقد تبدل وتحور. هل هناك من يقرأ مثل هذه الروايات؟

-كثير. الشباب يحبون أدب الرعب

-وأين الرومانسيات والحب ومشاكل المجتمع

-لم يعد هناك طلب عليهم كثيرا. الأجيال تغيرت أو تبدلت على حسب رأيك ويريدون الإثارة والتشويق والغموض وجرائم القتل المختلفة.

في تلك اللحظة صعدت الدماء إلى رأسي وتلاشت ابتسامتي، وقفت متسمرة في مكاني للحظات، كان فيها حسني يلبي نداء طلب أحد العملاء.

لم أقو على شراء أي رواية من تلك الروايات حينها؛ فأنا لم أكن مستعدة نفسيا لمثل هذا العنف الغير مبرر، هممت بالخروج، اوقفني حسني وسأل:

-أكنت في زيارة لصديقتك؟

-أجبت مع إيماءة من رأسي: نعم

-هل سنراك قريبا

-ربما. زفافي اقترب

-ما اسمه سعيد الحظ؟

-هشام

***

تردد اسم (هشام) كالصدى وتكرر حتى نطقت به في السيارة بين خالد وهيدي التي تعجبت من هذا التصرف وسألت: من هشام يا ريم؟

غريب!

أليس من المفترض أن خالد هو من يسأل ؟! نظرت له بتعجب ثم توجهت بحديثي إلى هيدي واخبرتها: لا أعلم. هذه ثاني مرة أجد اسمه يتردد. اولها في القصص القصيرة والثانية في حلم من أحلام اليقظة. هل وصلنا؟

لم ينبس خالد ببنت شفه، نظرات متبادلة مرة أخرى بينه وبين هيدي، دعوت ربي أن تمر الليلة بسلام بعد لقاء آخر في قصص المدعوة روان. ولقاء من نوع خاص مع حسني.

***

لم يتكلم خالد في شيء، ولم تهتم هيدي، وكان اللقاء عاديا وكأن شيئا لم يكن عدا بعض الهذيان والشرود الذي يصيبني بين حين وآخر، هناك ترتيب لما يحدث وقد تأكد لي ذلك عندما عدنا إلى بيتنا وانهيت طقوس الاستعداد للقراءة وفتحت الكتاب مرة أخرى.

(المنزل الغامض)

مشهد 5

(غرفة النوم)

جلست في حجرتها خائفة تترقب كارثة سوف تحدث بعد قليل، تنظر إلى سقف البيت فتجد المروحة تدور بشكل معكوس، الثلاجة لم تعد تُبرد كما كانت، التلفاز لا تظهر على شاشته الصورة بل يصدر عنه الصوت فقط، كل شيء تغير في هذا البيت.

بيت؟

لا. لم يعد بيتًا طبيعيًا. بل بيتًا غامضًا مليئًا بالأشباح، ترى أصدقاءها وقد حضروا فجأة وعندما تفتح أمها الباب يختفون.

فجأة وبسرعة تتدثر في البطانية خوفا من كشف أمرها. تحاول أن تعيد توازنها وتهدأ. تُغمض عينيها في استسلام. تحاول ركوب آلة الزمن وتضغط على زر العودة بالذاكرة للوراء كي تفهم ماذا حدث؟

مشهد 1

(حجرة الطعام)

أجلس مع والدي ووالدتي وأختي الكبرى في حجرة الطعام، ويشاركنا تناول الغداء عمي وزوجته والوسيم ابن عمي، نختلس نظرات خاطفة من العيون المشتاقة لبعضنا بين الحين والآخر، أنا التي تعودوا مني كثرة الكلام لدرجة الصداع أجد نفسي أتحول إلى آلة صماء في حضوره، أمي تداعبني بكلماتها وهي تعلم كل ما في القلوب:

" تكلمي، وإلا كيف سوف تعيشان تحت سقف واحد فيما بعد؟"

يضطرب قلبي خجلا وفرحا ويتلون وجهي بحمرة الخجل وارتبك أثناء تناول الطعام. فيضحك قاتلي من هذا المشهد، والدي وعمي يُباركان الحب الطاهر النقي في هدوء، بالرغم من أنه لم يتقدم لخطبتي بشكل رسمي بعد؛ بسبب زوجة عمي. التي بدورها تحدثت وألقت بقنبلة كالصاعقة في وجهي ودمرت كل أحلامي بعبارة ثقيلة على القلب. عبارة اتسعت لها عيون كل الحضور وألجمت ألسنتهم وتسمروا جميعا واجمين:

ابني من نصيب أختي الكبرى. ثم وجهت حديثها إليّ. أنتِ لا زلتِ طالبة في الجامعة.

مشهد 2

(غرفة النوم)

والدها في غرفته يجلس وحيدًا، يتذكر زوجة أخيه وما فعلته من مكائد منذ زمنٍ بعيد، تذكر أنه تزوج زوجته الحالية عن حب كبير، تنازل عن شقته رغم ملكيته لها ليبعد عن تلك المرأة المستفزة، زوجة أخيه التي بلا قلب

ولا رحمه، زادت الفجوة بين والديه وإخوته بسبب أفعالها اللا أخلاقية مع الجميع،

"ولكن. ما ذنب الأبناء؟"

هكذا حدثته نفسه. بدأت العلاقات تعود تدريجيا. وتمنى أن يتزوج ابن أخيه ابنته...فقد رأى سهم الحب يصيب قلبيهما، سهم ينطلق بلا عودة ولكن بعد الحُكم الصادر من هذه المرأة. لابد أن شيئا آخر سوف يحدث. خارت قواه في ضعف. وشعر بالشلل التام يسري في جسده.

مشهد 3

(غرفة بالمستشفى)

" حالة نفسية " هكذا تم تشخيص الحالة، تغير وضعها من بعد زيارة زوجة عمها، اصبحت ضحية نوبات إغماء مفاجئة بلا سبب، ظنوا أنها حالة أنيميا حادة، فقد لاحظوا شحوب وجهها بسبب قلة الغذاء والنوم، وعندما تم تحويلها إلى المستشفى ولم يجدوا سببا عضويا لهذه الاغماءات تأكدوا أنها "حالة نفسية".

مشهد 4

(البيت)

الأم في حالة يُرثي لها. عينان زائغتان. ليس لهما مستقر. تنسى المصحف في غرفة المجلس لتجده في حضنها وهي نائمة !، زوجها يوصيها بالبنات. يخبرها أنه على وشك الموت. لا زالت ابنتها الكبرى محتجزة في المستشفى بلا سبب. وابنتها الصغرى حكمت على نفسها بالحبس الانفرادي، تتحدث بصوتٍ عالٍ مع أحد ما ولكنها متأكدة أنها بمفردها وعندما تفتح الباب فجأة تجدها نائمة. كاد الشك يقتلها من شدة تلك الهلاوس

كادت أن تحرق نفسها أثناء إعدادها لوجبة الغداء. شيء ما غامض لا تعرفه يسري في أعصاب كل من في البيت ويهدد الجميع بالفناء.

مشهد 6

(غرفة ما)

غرفة مظلمة إلا من لمبة حمراء تتدلى من منتصف الغرفة، تكاد ترى أجسام الأشباح تلهو على الحائط ولكن عندما تمعن النظر قليلا. تجد أنها مجرد ظلال نار مشتعلة في إناء كبير جدا وأمامها تجلس امرأة في العقد الرابع من العمر ترتدي جلبابا أسود اللون وتربط رأسها بشال أحمر فوقه شال أزرق داكن وبعينين شيطانيتين تنظر في ورقة كبيرة. مكتوب عليها أسماء مختلفة مع كامل بياناتها. وأسهم تصل بينها من فوق لتحت ومن تحت لفوق. كلها بألوان سوداء وحمراء وزرقاء. رسومات لعيون يتطاير منها الشرر. رؤوس مقطوعة وجماجم وعظام. دوائر ومربعات ومثلثات. ضحكات شيطانية مرعبة تخيف الأشباح نفسها، فما بالك بالبشر إذا سمعها؟

جلست تلك المرأة لتحضر السحر الأسود للقضاء على عائلة أخ زوجها. قديما كانت تذهب الى السحرة لتتعلم الأعمال السفلية. أما حاليا فهي ساحرة بلا منازع.

***

"هذا ترتيب عبثي"

قال صديقه هذه العبارة وهو يلقي أرضا بكتاب كان يمسكه بقوة نابعة عن غضب مكتوم، كيف تموت البطلة من قبل وهنا تمكث في المستشفى ؟، غير منطقي وغير معقول!

حاول خالد أن يهدئ من روعه ويبين له أن موتها محض قصة خيالية أو بمعنى أوضح فقد خشي زوجها أن تبعد عنه بما أثير حول علاقتهما من أقوال، وقد هيأ له عقله الباطن أنها ماتت ثم وضعها في قالب زجاجي شفاف، ولكن الحقيقة غير كذلك.

أنت غريب، بدأت أخاف منك. أعرب صديقه عمّا يدور داخل نفسه.

لماذا؟ سأله خالد

لأنك غير موجود بكل المشاهد، كأنك حصلت على دور صامت أو كأنك شبح غير موجود، حتى عند ذكر هشام لم تبالي! أليس هذا غريبا!

الحب دائما غريب وغير منطقي وأنا أحب ريم حبا جنونيا، بلا عقل ولا منطق، لا تتعجب مما أقول

سأروي عليك حكاية غريبة

الحكاية حدثت في عشرينيات القرن الماضي ما بين 1920 --1930 في ألمانيا

أُتهم طبيب اتهاما غريبا جدا من زوجته، اتهمته بأنه على علاقة غرامية بسيدة ميته! وانه كل ليلة يذهب إلى المقابر ويمكث هناك طوال الليل يتحدث معها وهي ترد عليه! المحكمة بالقطع شكت في قواه العقلية وبعد التحقيق من قبل الاطباء النفسيين وجدوه عاقلا بما يكفي وأسقطت

القضية ولأنها كانت شديدة الغيرة ولكي تقطع الشك باليقين تم استخراج الجثة ودفنها في مقبرة أخرى مجهولة المكان.

لكن. بعد عدة سنوات وبعد وفاته وجدوا في مذكراته الآتي:

كنت أعيش بين الهند وأستراليا، سافرت إلى ألمانيا في بعثة طبية، التقيت هناك كما يقولون (نصفي الآخر) الجميلة "ماريا "، كانت مريضة بالسل، مسكينة تلك الفتاة، فقد تُوفي أخ لها بالسل أيضا، وتوفي أخوها الثاني صعقا بالكهرباء، وعندما تزوجت أصابها ذلك المرض اللعين، وأجهضت، وتخلى عنها زوجها وهرب، في البداية تعاطفت معها، رغم أنه خطأ أن يتعاطف الطبيب مع مرضاه ولكن هذا التعاطف سرعان ما تحول إلى عشق، وفي إحدى الليالي حدث مالم يخطر على البال ، صارحتها بأني أعرفها منذ زمن، لم تصدق في البداية ولكنها صدقتني بعد الأدلة التي أخبرتها بها،

وسألتني كيف ذلك؟

قلت لها: انها كانت تظهر لي في المنام

لم أنس روعة بريق عينيها وارتفاع حاجبيها الرفيعين من الدهشة، بالرغم من شحوب وجهها إلا أنها في عيني كانت تشع نضارة. حرصت على علاجها؛ كي أتزوجها، ولكن الموت كان أسرع من العلاج ورحلت

قبل وفاتها بيوم قالت لي كلاما عجيبا، أخبرتني انها سوف تزورني في المنام

في البداية انقبض قلبي، هذا يعني أن هناك أمر سوء سوف يحدث ويبدو أن حجاب الموت سيكُشف عنها.

وبالفعل وفت بوعدها. ولكن بعد سنوات وبعد زواجي

زارتني كثيرا وطلبت منّي التحرر من سجنها الحجري الذي تسكنه، لم افهم في البداية، وتكرر المنام بكل تفاصيله لدرجة أن طيف روحها كان يلاحقني في كل مكان

كنت أزورها كل ليلة، زوجتي شكت في سلوكي وقواي العقلية

وذات ليلة. اقتحمت قبرها. كنت ألهث من الرعب والخوف بلا وعي ولا عقل، فتحت القبر، ووجدت شيئا أغرب من الخيال، وجدت " ماريا " بجسدها وجمالها كما كانت رغم مرور الأعوام، لم اصدق نفسي، بكيت من الفرح والسعادة وبدون أن أشعر بنفسي، رفعتها إلى صدري وهممت بتقبيلها

ولكن زوجتي وصلت في تلك اللحظة وصرخت في رعب كاد صراخها يوقظ بقية الموتى.

اتهمتني بأنني على علاقة شاذة مع ميته ولكن المحكمة أثبتت براءتي وأنني سليم نفسيا وعقليا، وأعادوا دفن "ماريا " في مقبرة أخرى، انفصلت عن زوجتي. وبقت ماريا تزورني في منامي ليلاً واذهب اليها كل صباح في مقبرتها الجديدة. ولكن بدون أن اقتحمها فطيف روحها يكفي حتى أذهب إليها ونبقي معا إلى الأبد.

-من الواضح أنك تأثرت بهذه القصة كثيرا، ولكن لا عقل في الحب كما قلت. ودعني أكرر عليك نفس السؤال: أين أنت من ذكر هشام في الأحداث؟

-أخبرتك بأنك ستعرف كل شيء. لماذا تتعجل؟

-حسنا. ما الذي حدث مع ريم تلك الليلة؟

***

اطفأت إضاءة الاباجورة التي بجانبي ووجهت بصري إلى الظلام ، في ذلك الوقت ، كانت هناك موسيقى هادئة تنبعث من الخارج وتسري بلطف إلى داخل الغرفة المغلقة وتحتل كل ركن من أركانها ، بالرغم من أنها ليلة باردة ، إلا أن نشوة غريبة سارت بين خلايا جسدي ، انتعاش مفاجئ لرأسي ، وكأنني خرجت لتوي من حمام ساخن منعش تفتحت معه كل مسام جلدي ، أتخيل أنني أكتب بعض العبارات على ورق أبيض أملس ناعم كالحرير وبعد أن انتهيت ..مزقتها جميعا ،شرعت لكتابة بعض عناوين وأفكار ثم شطبت عليها ، أمسكت ورقة جديدة بين اناملي لعلها تطيعني تلك المرة وكتبت على جانبها بخط مائل " آخر رقصة " ، وتحتها أهم عناوين فصولها. خالد. هشام.هيدي.حسني.المكتبة.عمي

وأخيرًا رسمت قلبا كبيرا في منتصف الورقة وفي داخله كلمة (حب). ثم شرعت في تأليف روايتي من الخيال الشارد على الجدران الأربعة...بدأت الرواية تتجسم والشخصيات تتحرك في انسجام انسيابي عجيب. وفجأة

ظهرت إشارة خفية، قمت مفزوعة من مكاني في الظلام. اتحسس الجدران الأربعة واصرخ في أنين مكتوب: أين أفكاري؟ أين أبطال روايتي؟ أين جنوني؟ عقلي ارتد عن صوابه حتى ومضت فكرة كالبرق في رأسي وأصاب جسدي رعد قوي

وسألت: هل ابحث عن عود من الثقاب أم عن نفسي في أعماق الظلام؟

أم عن عباراتي التي تحت أقدامي؟

أم عن رواية انهيها في خيالي؟

أكثر ما يخيفني هي تلك الأحلام والكوابيس التي عادت تؤرقني في الآونة الأخيرة، بدأت أتساءل في قلق، أي لعبة سخيفة يمارسها عقلي الباطن بعد قراءة تلك القصص الملعونة؟

تركت كل شيء على وسادتي وأبحرت في أحلامي وخيالي؛ فالفضاء أوسع من حدودي التي سجنت فيها أفكاري.

الفصل الرابع

25 يناير

كل شيء هادئ كالمعتاد الا تلك النظرات المستفزة لهيدي، انها تراقبني، الآن اشعر فقط أنني مراقبة وتحت الملاحظة وكأننا في مستشفى الأمراض النفسية، وحان وقت المواجهة، من هو عمي هذا الذي ظهر في المنام؟ ومن هشام؟ وما هذا البيت الذي شعرت بوجوده؟ هذا البيت لابد أن بداخله سر، ومن زوجة عمي الساحرة التي فرقت بين الحبيب وحبيبته؟ لست مجنونة أو غير مدركة، هناك خلطة غريبة بين الواقع والخيال والأحلام وتلك القصص الملعونة هناك سر ما ولابد من توسل المعرفة، انتظرت حلول الليل بعد نهار أحسبه طويلا رغم قصره في الشتاء.

بعد منتصف الليل تنام المدينة إلا من عقول صاخبه او قلوب متوهجة بوهج العشق. انتظرت هيدي تلك الليلة وأبلغت النجمة المتألقة في السماء بفرار النوم من جفوني، لا مفر من استعادة الذكريات الأليمة قبل السعيدة، إنه الإنسان الذي يعشق الموت البطيء بكافة وسائله، قمت من فوق سريري

وسرت حافية حتى وصلت الى ركنها المفضل، بدت وكأنها في انتظاري، أدركت مقعدي وجلست ووقعت في دائرة من الحيرة متسائلةً من أين أبدأ؟

ولكن صوت هيدي الآمر قطع حبل أفكاري وازدادت مساحة الاقتراب بيننا أكثر حين قالت: تكلمي

استجمعت شجاعتي وأخبرتها أن هناك صور تظهر لي متقطعة وأنها متزامنة مع القصص التي أقرأها ولا يبدو لي ان خالدا على طبيعته.

فجأة توقفت حركة أصابعها وسكتت شفتيها عن التسبيح لتوان معدودة خيم فيها الصمت على المكان وبشيء من الغضب أكثرت من الحوقلة وبقيت على هذا الحال لدقائق معدودة، تسارعت فيها نبضات قلبي وتصارعت الأفكار داخل عقلي، وفي ندم تعالت النبضات إلى أن اعتدلت من جديد عند ابتسامة هادئة منها عدلت ظهرها على مسند مقعدها. وبريق نظرات عينيها تتحدث بالنيابة عن لسانها.

قالت بهدوء:

اسمعي يا ريم، يوما ما كنت تعيشين مع عمك، كنت طفلة صغيرة عندما مات أبوك، وترعرعت هناك لسنوات طويلة ولكنه كان فقيرا لضيق اليد، لديه ابن اسمه هشام، يكبرك بعدة سنوات، وفي يوم من الأيام ظهر عمك الأكبر بعد وفاة أخيه الذي كان يرعاك، أخذك لتعيشي بينهم في قصرهم الكبير، هناك فرق بين ما كنت فيه وما أصبحت عليه حياتك كالفرق بين السماء والأرض، ويشاء القدر أن يموت عمك الأكبر أيضا، بعدها تعرضت لظلم كبير من ابنه علاء، كان يسيء اليك كثيرا، ثم انتقلت اليَّ وعيشت معي كما ترين.

-أهذا كل شيء؟ سألتها

-لا. أجابت هيدي ثم اردفت:

هناك سر لا يعلمه أحد

سكتت هيدي فجأة لتسمع دقات طبول حرب الفضول داخل قلبي، امتزج الادرينالين بالهواء الذي استنشاقه ليسري داخل رئتاي ويشارك القلب في الهجوم على المجهول من وراء تلك القصة المسائية العجيبة. أشرت لها بنفاذ صبر، ولكن اتساع عينيها الخضراء كانت رسالة واضحة بأن ما ستقوله هو "السر " الذي سيصاحبني إلى قبري. وإلا.

***

(الملاك القاتل)

"القصة بدأت بطيئة وكأنها تسير على قدمي طفل رضيع ثم بعد ذلك انطلقت بجناحي طائر خائف"

في حديقة منزلها كانت الحفلة صاخبة ومثيرة على غير المعتاد، صاحبة المنزل قررت أن تجعلها ليلة لا تُنسى، قامت بدعوة الجميع بلا استثناء، كانت تشع بالطاقة والحيوية والإثارة، وسط اندهاش الجميع ظنوا أنها احتست كؤوسا من الخمر، هذه النشوة العارمة ليست طبيعية، مرّت الساعات والكل في حالة من البهجة وخرج الجميع من عند سيدة الحفل إلا إثنين عمها وصديقتها القديمة، لتبدأ في الاحتفال بهما وإعداد حفلة لهما من نوع خاص. خاص جدًا.

أمرت جميع الخدم بالعودة إلى منازلهم وستقوم بنفسها بخدمة صديقتها وعمها، عادت إلى غرفتها وخلعت ملابس السهرة وأبدلتها بملابس خادمة! تعجبت صديقتها عندما رأتها على تلك الهيئة، أما عمها فأوجس في نفسه خيفة. ترتدي ملابس غير مناسبة وتحمل بنفسها صينية عليها فنجانين من القهوة وكوبين من الماء البارد. الدهشة تزداد وهي تراقبهما في هدوء وهما يرتشفان القهوة

- عزيزتي. لماذا غيرت ملابسك بهذه الملابس؟

-عمي الحبيب. إنه ذكرى يوم ميلادي وأريده مختلفا عن كل عام. (تغيرت نبرة صوتها وهي تقول) لأنه بالفعل ميلاد جديد لنا نحن الثلاثة.

تبادلا -العم والصديقة -نظرات قلقة وبعد لحظات شَعر كلاهما بشيء غريب يسري في جسديهما. لمعت عيناها فجأة وبلهجة شديدة السخرية قالت: يبدو أن علامات التسمم قد لاحت على وجهيكما. جيد جدا.

قامت من مكانها فجأة وتحولت الى شيطان يمتلئ بالغضب والحنق. شيطان في قلبه عذاب سنوات طويلة، لسانها احرق الجميع:

لعلك يا عمي العزيز تسأل. لماذا؟ لماذا اقتلك؟ لأني أعلم بأنانيتك؟ تريد أن تتزوج صديقتي العزيزة. الوحيدة التي فتحت لها قلبي قبل بيتي والتي فتحت لها باب البيت بيدي فأشعلت في البيت النار واحرقتني.

كانت تتأملهما وهما في لحظات الوهن والضعف، ثم قامت واخذت كل واحد منهما إلى حبلي مشنقة كانت قد أعدتهما لهما في الحديقة. ولكن قبل لف الحبل كانت الدموع تسيل على وجنتيها تلهبهما فتزداد عنادا ورغبة متوحشة في الانتقام، أوقدت نارا تحتهما ليحترقا. لفت الحبال حول

رقبتيهما وهما يتقطعان ألما من السم والنار. وبسرعة جنونية دفعت الكرسيين.

وقبل أن يلفظا أنفاسهما الأخيرة. أسرعت إلى مسدس عمها الخاص الذي عادة ما يحمله معه وأفرغت رصاصاته في جسدهما.

(أثناء التحقيقات)

-ما سر ارتكاب تلك الجريمة البشعة؟

-أفكارنا الملوثة

-أرجو الإيضاح

-كان الآباء يرون أن كل شيء يدل على الحياة حرام، البنت التي تقرأ وتكتب وتذهب إلى النادي وتغني وترقص ماهي إلا بنت مجرمة وسافلة ويجب أن تُقتل إذا ذهبت إلى السينما، البنت المثالية هي التي تجلس في بيتها ورأسها في الأرض وتخاف من كل شيء. من التلفاز والهاتف وكل من هو ذكر حتى لو ابن عمها، أفكار ملوثة عفنة. لكننا لم نجد ما هو أحسن منها، إنني ملاك طاهر، ليس لي سوى روحي عندما أتقلب فوق السرير. حافظت على نفسي وشرفي. حتى وجدته او هو من وجدني، أحببته وجعلت من حبي له قوة خارقة. جعلت من حبي له سياجاً من حديد، وجعلته نارا لا تنطفئ، ريحا تدفع سفينته إلى الأمام حتى ضاع مني في الزحام، رأيت عمي يضحك لصديقتي وبكيت، انحني لها وينكسر ظهري، احترق ليضيء هو، صرت مصدر الضوء والسعادة لهما، حتى اكتفيت من تلك اللعبة السخيفة. وبدلت الأدوار في تلك المسرحية الهزلية. ارتديت ملابس الخادمة حتى أنسى أنني سيدة القصر، وألقيت بهما في نهر من الماء يغلي. كل من ينزل فيه يلتهب ويحترق... ولكن الاحتراق متعة والهوان لذة...
والحرمان من بعضهما البعض واجب واخترت يوم الاحتفال بذكرى ميلادي، كي أُولد حرة من جديد. لا يهم، حتى لو قضيت بقية عمري داخل السجن أو تم إحالة أوراقي إلى المفتي.

***

أشرقت الأرض بنور ربها في اليوم التالي، وسرعان ما أمسكت الكتاب بيدي وخبأته داخل معطفي، وخرجت بعد أن أخبرت هيدي أنني في طريقي إلى السوبر ماركت، كنت أكذب، لأنني كنت في طريقي الى المكتبة، تمنيت فقط أن أرى حسني، حسني، ذاك الشاب النحيف. هو يعرف شيئا ما بعيدا عن هيدي وسذاجتها، تقول لي أنها ستخبرني بسر ثم تكذب وتقول إن عمي قتل في ظروف غامضة، وبعدها مباشرة أقرأ قصص روان الملعونة. أقرأ قصة الملاك القاتل؟، أي عبث يحدث معي؟

ما أن خرجت من المنزل حتى رأيت شعاع شمس دافئة تحيط بي، اعترف أنني متطيرة للغاية، ولكنه أمر نفسي لا استغنى عنه، هل ينظر الجميع لي؟ هل يشكون في أمري؟ ولماذا؟ تشوهات نفسية تحوم بي وأحسب أنها مفضوحة، ها انا الآن قد وصلت.

-صباح الخير

-صباح النور

كانت فتاة بسيطة، كل شيء بها تدل أنها عاملة بالمكتبة، ضغطت على اسناني من الغيظ، وسألت:

أين حسني؟

-سيأتي بعد العصر

-هل معك رقم هاتفه؟ فكرت بسرعة

-نعم.لكن.هو الآن نائم و.

-من فضلك. لا شأن لك. حسمت الأمر

-حسنا. باستسلام

ناولتني كارت خاص بالمكتبة وعليه اسم حسني ورقمه. شكرتها وتأسفت لها من لهجتي الحادة وسارعت بطلب الرقم وقمت بالاتصال

ما يقرب من أربع ساعات وأنا أحاول الاتصال به ولكن كان دائما الهاتف مغلق، مسكينة تلك الفتاة، ظلمتها، بالفعل كان نائما وأنا احترق من داخلي ولكن الصبر، مرت ثلاث ساعات اضافية وبعدها رن الهاتف، خلال السبع ساعات الماضية كنت أذهب إلى البيت وأنزل أسأل عليه وأعود، وهكذا بقيت على هذه الحالة بين البيت والشارع كأنه مسني الجنون.

-اهلا

كان الصوت مازالا نائما كأنه يتحدث من تحت الفراش الدافئ، سارعت بالإيجاب عليه:

حسني. أنا ريم. هل تذكرني؟

-ريم (صوته يبدو متعجبا). ريم من؟

-ريم. عملية المكتبة. لقد رأيتني منذ يومين مع خالد وهيدي في السيارة وابتسمت لي، ظننت أنك ما زلت تذكرني

-نعم نعم ريم. (تذكر) آسف. الآنسة ريم. أم مدارم ريم؟

-لا. لازلت آنسه. هل تذكر عندما حضرت إليك منذ عدة أشهر. تقريبا الصيف الماضي. تحدثنا وقتها عن روايات الرعب، كنت اريد أن اعرف هل تعرف كاتبة تُدعى روان أحمد؟ ودار نشر اسمها (غموض)

تسارعت دقات قلبي وكأنني في انتظار نتيجة الثانوية العامة، فقد أخذ وقتا للتفكير ثم قال:

لا. لا اعلم كاتبة بهذا الاسم ولا دار نشر بهذا الاسم.

أصبت بخيبة أمل كبيرة ولكنه قال:

اسمح لي يا انسه ريم بكلمه

-تفضل.

اشرقت ملامح وجهي لعله تذكر شيئا ولكنه ألقى بقنبلة مدوية هزت أركان الشارع كله بعد أن قتلتني ودمرتني وحولتني الى ذرات متناثرة في الكون الفسيح، قال:

-هذا اللقاء لم يكن في العام الماضي. آخر مرة قابلتك فيها كان منذ ثلاثة أعوام ونصف ثم اختفيت بعدها لتظهري مرة أخرى مع صديقتك التي تكبرك في العمر بعد عام ونصف ثم اختفيت مجددا ثم ظهرت مرة أخرى. أليس هذا عجيبًا.!!

***

29 يناير

تلقى خالد اتصالاً هاتفيًا من هيدي تطلب منه الحضور بسرعة للمنزل، بعد أن صدمني كلام حسني عدت إلى البيت وأنا غير مصدقة ما سمعت، ما أراه في أحلامي أراه في الواقع، الحياة رمادية اللون، باهته، دخلت البيت وتدثرت تحت فراشي وأنا ارتعد من الخوف.

حضر خالد ورأيت القلق في عينيه، انقبض قلبه وضاق صدره وساورته الهواجس ولم يدعه الشيطان في حاله، فقد وسوس له بأن هناك كارثة ولكنه لم يدرك الأمر بعد.

لم يتركني خيالي المريض في حالي وسألت نفسي:

ماذا لو كان خالد زوجي بالفعل؟ وعلم أنني مريضة ثم اتصلوا به ليعود إلى البيت؟

***

جاءني حاملاً معه الشك قبل اليقين، كانت الصالة بدون إضاءة مكتفية بانعكاس نور الشمس داخل الشقة ،وجدها تجلس على الأرض وقد اسندت ظهرها على الحائط وأرجلها ممتدة أمامها ، نظرات حادة كالسهام أصابت قلبه الجزع ، كانت نظراته كالرسائل تحمل لوما وعتابا وحيرة ، ترتدي ملابس رياضية كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها، خالتها تجلس بجوارها وتهدئ من روعها وغضبها ، هناك شبح رجل يجلس في زاوية بعيدة من زوايا الصالة وهو في حالة شرود ، تأمل الزوج كل هذا ولم يفهم شيئا. الأدرينالين امتزج بقوة في الهواء المحيط بسبب شيء غامض يلف الموقف كله. الحقيقة الوحيدة ان الجالسة على صفيح ساخن شاخصة ببصرها إليه لم تكن زوجته!

بهدوء وبطء شديدين وجد أقرب كرسي له وجلس عليه يتأمل ما رآه، كل شيء في هذا المكان مزيج من الهزل والحقيقة، البيت والأثاث والستائر وكل شيء كان يملكه بالفعل ولكن هؤلاء الأشخاص لا يعرفهم. من هم؟ وكيف اتصلت به من رقم زوجته؟ قام فجأة من مجلسه. وسأل سؤالاً كان ينبغي له أن يسأله فور وصوله: أين زوجتي؟

"انها محمومة"

صدرت هذه الجملة من خالتها الجالسة بجوارها. كادت أن تفقد الوعي. لولا أنه هرع لحملها وهو لا يعرف لماذا يفعل كل هذا؟ حملها وقد سبقه شبح الرجل في اشعال اضاءة غرفة النوم، وضعها برفق فوق السرير الذي يؤكد لنفسه أنها غرفة نومه، كل شيء موجود كما تركه هذا الصباح والسؤال الذي لا يزال يقف كغصة في منتصف حلقه من هؤلاء؟ وضع كفه الأيسر فوق جبينها ليتأكد من أنها محمومة أم لا، وكانت المفاجأة التي صعقت قلبه وسمع دقاته كل من كان بالغرفة، إنها هي، انها روان.

تلاشى كل شيء من حوله، كأنه يسبح في الفضاء البعيد، لم يعد هناك وجود للشبح ولا خالتها. لم يبق إلا هو وهي فقط في غرفة النوم. هدأ من روعه وهو يراها نائمه أمامه. كل شيء صار يتضح له تدريجيا

العبرات تنسكب من محاجرها. عيونه غرقت في بحور الندم. لقد ظلم زوجته وظلم نفسه. إن الراقدة أمامه بالفعل زوجته كجسد ولكنه الروح روح الأخرى.

هبط لأرض الواقع عندما فتحت عينيها فجأة واستدارت رأسها نحوه وفي إعياء شديد طلبت الخروج من المنزل معه، لفت انتباهه أن هذا ليس صوتها، كان صوتا آخر.

قامت بصعوبة وكأنها تحمل جبل على كاهلها وارتدت ملابسها في وهن، كانت ملابس غريبة عليه، لم تكن ملابس زوجته، كادت تقع من فرط ضعفها، لولا أنه قام وساعدها للمرة الثانية. تأبطت ذراعه وخرجا سويا.

مرّ عشر دقائق كاملة في صمت، هي لم تتكلم، وهو لم يبادر، مازال لا يفهم ما الذي حدث؟ وكيف أتت؟ وأين زوجته؟ اسئلة تحوم حول رأسه كالطير بلا هدف ولا إجابة، جفون مرتخيه تنظر إليه، النظر بصمت قاتل، تبادلا النظرات، كانت لغة العيون خير من الكلام وفجأة تحركت شفتاها وطلبت العودة ولأنها لم تعد تقوى على السير، أوقف لها سيارة أجرة. استقلتها وحدها ثم اغلقت الباب. اندهش من فعلها، حاول فتح باب السيارة ولكنه كان قد أُوصد تماما، انحنى وعيونه تسأل: لِمَ؟ وإلى أين؟ لكنه رأي عجب العجاب، فقد استعادت حيويتها ونضارتها فجأة! عيون واسعة، عسلية اللون تضحك في شقاوة، بشرة بيضاء اختلطت بلون الورد لوّن وجنتيها، خصلات شعر سوداء تدلت في انوثة جذابة، لوحت بأنامل ناعمة في دلال وغنج وغادرت! وقف مذهولا لهذا التحول المفاجئ والغريب وسمع فجأة من ينادي عليه، استدار بكامل جسده ليجد زوجته هي من تنادي! أفاق من حلمه وزوجته تربت على كتفه في حنان. قام من فوق سريره غير مصدقا لما رآه، كان حلما طويلا وغريبا، فرك عينيه مرة أخرى ليتأكد أنه في الواقع وتأمل كل ما في الغرفة، ليجد ريم وهي تقول له: هشام، من قتل عمي؟

***

-هل معنى ذلك أن ريم علمت بأن عمها قُتل من خلال هيدي بالتزامن مع قراءتها للقصة القصيرة؟

سأل صديقه كعادته بعد كل انتهاء كتابة كل مشهد

-وهنا حدثت العُقدة، ريم بين شقي الرحى، هشام الذي ظهر كشبح من الماضي وكأنه يمثل السعادة وخالد الذي يعيش معها الحاضر وكأنه يمثل التعاسة.

والسعادة كالتعاسة. لا تخفي رائحتهما النفاذة على أحد.

بمن ستبدأ؟

-خالد بالقطع، الحاضر

-وبدون ماضي لا يوجد حاضر

-لا أريدها رواية تقليدية

-حسنا.

خالد

الفصل الأول

كيف دخلت حياة ريم؟

ظهرت عندما اختفى هشام، عاشت في خيال سريالي لا معنى له، عانت من نفس المشهد العبثي الذي حدث لعدة ليال، نفس الكابوس الذي ظل يطاردها كل ليلة وهي مستيقظة:

" تظن أنها لو فتحت أي باب مغلق سيقفز هشام أمامها ، خاصة أنها تعيش وحيدة في بيت ليس بيتها بل بيت هيدي ، ولأنها تشعر بالراحة النفسية، أعدّت لنفسها مشروبا ساخنا وفتحت اللاب توب لتتصفح قليلا قبل لقاءها بالأحلام السعيدة، عقدت حاجبيها وقطبت جبينها عندما رأت خيالا يذهب ويجيء على شاشة اللاب توب، استدارت ببطء ثم نظرت خلفها فجأة

ولكنها لم تر شيئا، ولن تر أي شيء في هذه الحجرة المظلمة ، استعادت توازنها ومع رشفة من الكوب الساخن لاحظت الستارة التي أمامها تتحرك ، ابتسمت ساخرة من نفسها، فخلف هذه الستارة حائط ولا مكان لنافذة خارجية أو شرفة فمن أين تأتي الحركة؟

وفجأة وبدون سابق انذار وجدته بجانبها، هشام، شهقت من الصدمة وتيبست أطرافها وكاد قلبها ينفطر من الرعب، ابتسم في هدوء وقال لها: أهكذا تستقبلين زوجك؟

وكأنها بلعت لسانها من الخوف وبصعوبة بالغة قالت: ل.ل..ك..ن..ك..لكن لم نتزوج بعد. اننا مخطوبين فقط. ولن اتزوجك بعد أن هربت؟

بدهشة قال: لست هاربا. كنت وسأظل حبيبك والدليل أنني أمامك ومازال معي مفتاح الشقة رغم أنها ليست شقتنا، ولم أفر هاربا، كل هذا وهم داخل رأسك.

أصابها الوجوم والاضطراب واتسعت عيناها من الرعب ومدت كلتا ذراعيها نحوه وهي تصرخ: لا. لا. أنت.أنت. (صمت). لقد رأيت كل شيء. لاااااا

قامت مسرعة نحو باب الغرفة لتجده مغلقا ومن شدة الارتباك، نسيت إضاءة الغرفة وكأنها نسيت مكان مفتاح الإضاءة حتى وجدته وأشعلت النور وعيناها تبحث عن هشام في كل أرجاء الغرفة، لم تجده، وجدت أنفاسها تعود لهدوئها رغم فزعها وهدأت دقات قلبها كثيرا واستعادت نظامها، وتيقنت تماما أنه وهم، عاد الهدوء إلى سائر حواسها، وفضلت النوم على البقاء مستيقظة لعدم السيطرة على اضطرابها النفسي، أغلقت اللاب توب وقبل أن تزيحه من مكانه، رأت نصل السكين يلمع من انعكاسها على شاشة اللاب توب المظلمة.

دوت صرخة هائلة اهتزت لها أركان المصحة النفسية التي تتعالج فيها، وحولها نظرات مشفقة من الطبيب والممرضات وهي منكمشة على ذاتها في ركن الغرفة مثل جنين تحيط به العيون شاخصة.

-لديها فقدان ذاكرة انفصالي

-ماذا تعني دكتور؟ سألت هيدي الطبيب النفسي عندما أخبرها عن حالة ريم والذي اجاب:

فقدان الذاكرة نفسي المنشأ، أو فقدان الذاكرة الفصامي، وهي حالة من الاضطراب النفسي تؤثر في الذاكرة، وبالتالي تجعل المصاب لا يتذكر أي معلومات شخصية، وذلك خلال فترة زمنية محددة، وتتراوح بين عدة ساعات وحتى أعوام.

سمعت اسم هذا المرض وفتحت الانترنت وقرأت عنه:

فقدان الذاكرة الانفصالي أو التفارُقي dissociative amnesia هو فقدان الذاكرة الناجم عن الصدمة أو الشدَّة، مما يؤدِّي إلى عدم القدرة على تذكُّر المعلومات الشخصية المهمَّة؛

فالأشخاصُ لديهم ثغراتٌ في ذاكرتهم، قد تمتدّ من بضع دقائق إلى عقود.

بعدَ الانتهاء من الاختبارات لاستبعاد الأسباب الأخرى المحتملة، يقوم الأطباءُ بتشخيص هذا الاضطراب على أساس الأَعرَاض.

تستخدم طَرائِق استرجاع الذاكرة، بما في ذلك التنويمُ المغناطيسي والمقابلات الميسَّرة بالأدوية، لملء الثغرات في الذاكرة.

وهناك حاجة إلى العلاج النفسي لمساعدة المرضى على التعامل مع التجارب التي أدت إلى الاضطراب.

فقدانُ الذاكرة هو عدم القدرة الكلية أو الجزئية على تذكُّر التجارب الأخيرة أو تجارب الماضي البَعيد. عندما يحدث فقدانُ الذاكرة بسبب اضطرابٍ نفسي، وليس بسبب اضطرابٍ جسدي، يُسمَّى فقدان الذاكرة التفارُقي.

في كثير من الأحيان، تكون الذاكرةُ المفقودة معلوماتٍ عن الأحداث الصادمة أو المسبِّبة للشدَّة، مثل سُوء المُعاملة في الطفولة. وتستمرّ هذه المعلومات، على الرغم من نسيانها، في التأثير في السُّلُوك أحيَانًا؛ فعلى سَبيل المثال، مع أنَّ امرأةً ما تعرَّضت للاغتصاب في مصعد لا يمكن أن تتذكَّر أيّة تفاصيل عن الاعتداء، إلاَّ أنَّها تتجنَّب المصاعد ولا ترغب في الدخول إليها.

يكون فقدانُ الذاكرة التفارُقي أكثرَ شُيُوعًا بين النِّساء بالمُقارنة مع الرجال، والأشخاص الذين عانوا أو شهدوا الأحداث المؤلمة عادة، مثل الاعتداء الجسدي أو الجنسي، والاغتصاب، والحروب، والإبادة الجماعية، والحوادث، والكوارث الطبيعية، أو وفاة أحد أفراد الأسرة. كما قد ينجم أيضًا عن القلق بشأن مشاكل مالية خطيرة أو نزاع داخلي هائل (مثل الشعور بالذنب إزاء بعض الاندفاعات أو التصرفات، أو الصعوبات الشخصية التي تبدُو غير قابلة للحل، أو الجرائم المرتكبَة).

ويمكن أن يستمرّ فقدان الذاكرة التفارُقي لبعض الوقت بعدَ وقوع حادث مؤلم. يظهر أنَّ الأشخاصَ يسترجعون الذكريات من تلقاء أنفسهم أحيَانًا.

وما لم يؤكَّد ذلك من قِبَل شخص آخر أو بأدلَّة أخرى، فإن مدى ودقَّة دلالة هذه الذكريات المستعادَة على أحداث حقيقية من الماضي قد يكونان غير واضحين.

الأعراض

أكثر الأَعرَاض شُيُوعًا هو فقدان الذاكرة.

المُعالجة النفسيَّة

بمجرَّد شفاء فقدان الذاكرة، تساعد مواصلةُ العلاج النفسي.

قرأت على هيدي بعض الفقرات من هذا المقال الخاص بمرض ريم ووضعنا خطة لعلاجها وكان لابد من ظهوري بشكل مختلف أؤدي فيه دور المُنقذ الذي يدخل خلف الطبيب المعالج .

***

-إذن أخفيت شخصية هشام وظهرت أمامها من جديد متقمصا شخصية خالد؟ سأل صديقي

-نعم. بالاتفاق مع هيدي ، الأمر كله بدا كقدرا ، في تلك الليلة واشتعل رأسها بوهم بأنني قاتل ومجرم ومعي سكين لذبحها، اصيبت بحالة إغماء عميقه ، حملتها على إثرهاوأسرعت بها إلى المستشفى وهناك أصدروا تقريرا بتحويلها إلى مصحة نفسية ، بقيت في الغيبوبة عدة أيام وعندما استفاقت لم تكن تذكر شيئا ، ظهرت هيدي أمامها ولم تعرفها، ولا أعلم لماذا أمسكت ببالطو أبيض وجدته على الكرسي خارج الغرفة ودخلت

عليها ، حينها رأيت ابتسامة غريبة وكأنها وقعت في حبي بشكل مفاجئ ، وعندما أخبرنا الطبيب عن حالتها وفقدانها للذاكرة لم يبق لنا إلا رحلة طويلة كي تسترجع ذاكرتها وكانت تلك فرصة لأبرئ نفسي من جريمة القتل وتعود ريم إلى هشام .

-ثم؟

-ثم جاءني الشيطان

كانت الجواب صاعقًا، فارتد صديقي للخلف في ذهول:

ماذا؟

-كما أخبرتك، جاءني الشيطان، كنت حينها أكتب رواية جديدة وانهيت الكثير منها وانا اكتب المقدمة. حدث ما يلي.

***

عدت إلى بيتي بعد أن اتفقت مع هيدي على كل شيء، كنت جالسا أمام شاشة اللاب توب أكتب رواية (سفينة بلا مرفأ) واستعرض فصولها أمامي. ولكن الشيطان جاء على هيئة شاب وسيم وسألني:

ماذا تفعل؟

ارتعدت مفاصلي وقفز قلبي من الرعب وسألت في شغف:

من أنت؟ وكيف دخلت إلى هنا؟

- لا يهم، أجب على سؤالي فقط

لم احاول النهوض من مكاني؟ فالمفاجأة شلت أقدامي وأجبت:

أكتب رواية جديدة

-لماذا تكتب و بين يديك رواية رعب؟

-ماذا تقصد؟

-ريم

-ماذا عنها؟

-قصتها تصلح أن تكون رواية، عليك أن تتبعني فقط

-ولكن، أنا أساعدها في العلاج

-لا بأس

-ماذا أفعل؟

أمسكت بالأوراق التي كتبت عليها وأحرقتها، رماد أسود متراكم فوق تراب نتن بجوار حائط باهت اللون ، هذا ما تبقى من روايتي الجديدة ، أحرقتها بعد أن سطرت بداخلها خمسة فصول كاملة ، أغضبت البطلة بعد ما كانت هادئة وديعة وحولتها إلى عاهرة تشتهي الرجال ، وألقيت محبتي على شاب وسيم لا يمثلني في شيء بل اعتبرتها بمثابة رغبة مكنونة داخلي لأنني كنت أحب أن أكون مثله تتهافت عليّ الحسناوات ، وحضرتني واقعة مختبئة داخل عقلي الباطن لتلك التي أحرقت بيت العائلة يومًا ما ، ووضعت كل القبح في بانوراما شاملة لدراما متحركة تقرأها مسحورا من السرد والإبداع ، دراما أحركها كما يحلو لهوى النفس ، جميل جدا أن أكشف في قذارة أسناني عن بقايا النيكوتين الملتصق عليها وأضحك بهستيريا. وكأن برجا بعقلي قد تهاوى ودمر باقي الأبراج فتساقطت بتعاقب وانتظام كقطع الدومينو ، شعر طويل بلا تهذيب ، لحيه مُهمَلة بلا تشذيب ، كانت تلك بعض صفاتي الظاهرية وأنا أحرق تلك الأوراق ومعها أبراج تتهاوى داخل عقلي.

-وتغيرت بين عشية وضحاها؟

-لم يكن هناك بديل يا صديقي العزيز، كانت الخطة مرسومة بفعل قوى شيطانية رهيبة، ولأن النار لا يعذب صاحبها إلا بالنار؛ كنت ابتسم ابتسامة هادئة حالمة وأنا أُعذب الماضي الذي يخيفني، ، وأنا أعود مرة أخرى لأقلامي واوراقي وقراءاتيوكأنني خلف ظهر حاجز شفاف، غير مرئي يحول بيني وبين الاندماج في الحياة. حاجز من صُنع الآخرين الذين يضمرون لي الكراهية والشر لمجرد أننى إنسان مختلف. منذئذ قررت اصطحابهم جميعا في رحلة ورقية كي أفعل بهم ما أشاء، كنت ألهث وراءهم بين السطور والجُمل والعبارات، دقات قلبي كانت تتسارع وأنا أعدو بينهم، أحاول الفوز في سباق وهمي اخترعته نكاية في انتقاصهم من قدري وفي غربتي، وبعد أن تفوقت عليهم جميعا حان وقت المحاكمة وحكمت بأن اسومهم سوء العذاب المهين.

-حتى ريم؟

-لم يكن هناك خيار آخر، لم أكن وحدي، الكارثة التي حدثت أن ريم انتكست وعادت من جديد إلى هذيانها ورعبها ولذلك قررنا الاحتفال بذكرى عيد ميلادها ليلة 19 يناير لأنه في الواقع كانت ذكرى ميلادها 19 فبراير.

انتظرت حتى حمل الهواء بقايا الرماد الأسود بعيدا ثم أشعلت لفافة تبغ وانتشيت من رائحة الدخان وأثرها على أصابعي، وضعت يدي اليسرى في جيب بنطالي وسرت في منتصف الطريق، غير مبال بصيحات السائقين ولا بذهول المارّة، تمنيت أن يظهر من ورائي سائق مجنون يقوم بإزاحة عقلي من فوق الطريق الحائر.

عدت إلى غرفتي، غرفتي التي جمعت بين الأحياء والأموات، الصدق والأكاذيب، الحقائق والفانتازيا، وفرقت بيني وبين نفسي، بين عقلي وقلبي، تمنيت أن أعود جنينًا إلى رحم أمي، وأبدأ من جديد، او تنتهي روحي وتنتقل إلى جسد آخر في زمكان آخر.

الفصل الثاني

19 يناير

وحلت ليلة الاحتفال بذكرى عيد ميلاد ريم . وكنا قد أشعنا ذلك من قبل، لا نريد الفشل مرة أخرى ، كانت الأجواء تشع بالغموض والاثارة وانحباس الأنفاس، كنت ألعب دور خالد في نظرها واتعامل معها من هذا المنطلق ، ولكن وفي نفس الوقت كنت هشام ابن عمها أمام هيدي ، حضرت الحفل ابتسام وناهد على أنهما: الدكتورة اماني والدكتورة ياسمين ، طبيبتان مختصان في علم النفس والأعصاب وهما على علم بحالة ريم ، كانت الخطة هي أن نفتح باب بئر أعماق الباطن بهدوء دون عنف ، ونضيء الأنوار لعل ريم ترى شيئًا غامضًا بداخلها، بدأت الحفلة ، وبدأ خفقان

القلوب ، إلا قلبي ، كان خفقانه من نوع آخر ، ، كانت ترتدي فستانا مثيرًا يحكي تفاصيل جسدها بكل حرية، سحر ابتسامتها جعلني أذوب عشقا، لمعت عيناي عندما أحسست نعومتها وهي تلتقط السلسة الذهبية ، وفي نفس الوقت شردت ريم والعيون تلاحقها من كل اتجاه، صمت رهيب كأن على رؤوسهم الطير ، احتباس أنفاس مثلما يحدث أثناء مشاهدة افلام الغموض، اشفقت عليها جرّاء هذه الأفعال الزائدة عن الحد ، كانت النتيجة سلبية، رد فعل طبيعي صدر عن ريم لم يصب أي هدف في مرماه، انشغلنا قليلا بالضحك والمزاح وتذكر بعض المواقف الطريفة في حفلات أعياد الميلاد، كانت نظرات هيدي فاضحة، حاولت أن أنبهها بأن ما تفعله خطأ فادح ، بسرعة أعطيت ريم هدية ملفوفة، كنت أعلم انها تحب القصص والروايات، فهي منذ نعومة أظافرها تحب أن تحيا في عوالم أخرى غير العالم الذي تعيش فيه، فتحت الهدية في شغف واضح، وبُهتت عندما رأت عنوان الكتاب و اسم المؤلفة واسم دار النشر، ثم ابتسمت في سخرية وودت لو افصحت عمّا بداخلها. قالت: هل هذه هدية تليق بعيد ميلاد ! ؟ حينها همت أن تفتح الكتاب وخشينا أنذاك من انقلاب مفاجئ في حالتها، لكنها مرت مرور الكرام على الأمر. تعمدت إظهار صورة قديمة لها على الكعكة التي كانت أمامها، صورة جميلة لها في مرحلة المراهقة ، ما زلت احتفظ بها ، كانت بداية قصة حب مشتعلة، لم تكن قصة تقليدية، ولا أظن أن أحد شعر بهذا الحب الذي بدأ هادئا أمام عينيك وكبر ونضج مع توالي السنين، كانت بحاجة إلى الأمان ووجدته عندنا، في بيت عمها وفي قلب ابن عمها، ما حدث بعد ذلك جردها من الدفء والحنين ليحل محله البرود والظلام ، ولم أخطئ عندما وضعت عنوان (الظلام البارد) على الكتاب. إنه يصف النصف الآخر من حياتها، ما زلت أذكر ريم وهي لم تزل طفلة صغيرة تلعب معنا ، في البيت والشارع وعلى السطوح. أذكر أنني في ليالي رمضان وفي الأعياد حين كنا نفرح أدخل عليها غرفتها فأجدها تبكي، تبكي بحرقة، بياض عينيها تشوبه حمرة راكدة على سطحه، بالطبع إنها تبكي على والديها، ترى الأطفال في مثل عمرها في أحضان دافئة إلا

هي، انكساراتها الداخلية وجروحها العميقة لم تلتئم بالرغم من أحضان عمها ، تمر السنوات ونبتعد ولكن يبقى الحب.

مرت الليلة بسلام وعدت إلى بيتي وهاتفت هيدي .

-هل لاحظتِ عليها أي شيء؟ سألت بشغف

-لا. حالتها طبيعية جدا

ردت هيدي بمنتهى الهدوء

كانت تتلصص عليها من بعيد، تروح وتجيء أمام غرفتها، كانت الحيرة تقتلها ، لولا أنني لم أهدئ من روعها لاندفعت داخل غرفة ريم وفجرت حيرتها وفشلت الخطة، شعرت بأن ريم تحركت داخل غرفتها، عندما سمعت صوت ارتطام جوالها يقع على الارض، عندها آثرت السلامة، وأطفأت أنوار الصالة وخمدت نيران شغفها وحاولت النوم.

***

خلوت إلى نفسي وأتى الشيطان مرة أخرى، كان دائما يتمثل لي شابا وسيما ذا ابتسامه باردة ، واثقا من نفسه ومن أفعاله، واضعا كفيه في جيبي بنطاله عندما يُملي عليّ ما يريده ، وهو يخطو بهدوء أخبرني بأن أتصل بريم من خط آخر ، هذا الخط سري، ولن يظهر أي رقم على شاشتها، إتصل بها واضحك بصوت يبث الرعب في نفسها وأسمعها صوت موسيقى ثم أغلق الخط ، ترددت في البداية. واتصلت بعدها مرتبكا مغلقا الهاتف سريعا، ارتعدت فرائصي من الرعب عندما رأيته يكشر عن أنيابه ويصرخ في وجهي. كنت مثل الطفل وهو يسمع كلام والديه أو كجندي يطيع أوامر جنراله. أطعته في هدوء ونفذت أوامره..

السلسلة الذهبية والاتصال المجهول كان علاء صاحبهما..

من علاء ؟.

ابن عمنا أنا وريم ، نبته وضعها شيطان من شياطين الانس في أرض الجحيم، وعندما كبرت ونضجت جاء بها.. صارت النبتة شابا اسمه علاء. شاب يكبرنا أنا وريم. عندما انتقلت ريم للحياة مع عمي، الدكتور أمجد، وجدت هذا العلاء في الفيلا، كائن شيطاني ، متوسط القامة، له عيون خضراء اللون وكأنها عدسات لاصقة، لا تتناسب مع ملامح وجهه ولا لون بشرته القمحية، أجعد الشعر ، مغرور، معجب بنفسه وبثراء والده، مدلل وكل شيء متاح له، بما في ذلك ريم، عذبها بتحرشه بها ، توسلت إلى عمها كثيرًا بأن يدعها علاء في حالها ، كان يثور عليه أحيانا ولكن أمه كانت تدعم هذا الشيطان، سر خفي وراء هذا التصرف، كبرت ريم وتعودت على ألاعيبه الخبيثة، وترسخت أسسها في أعماقها لتلاعبه مستقبلا بطريقتها وطريقتي. كان يهاتفها من أرقام مجهولة تبعث في داخلها الشك والريبة، كانت تعلم أنه هو ، خاصة بعد زواجه، تساءلت بيني وبين نفسي: لماذا لم يتزوجها ؟ ، لم أعرف ابدا بغضب زوجة عمي إلا فيما بعد، ولكن ما خفي كان أقبح ، ورحمة الله بريم كانت أقوى من شر علاء ونواياه السيئة. في تلك الليلة لعبت نفس اللعبة وبعدها حاولت الاطمئنان عليها بعد أن تبخر الشيطان لكني وجدت هاتفها مغلقا، بالتأكيد قرأت أول قصة وتذكرت الكثير من طفولتها وغطت في سبات عميق.

***

كيف علمت بأن هذه قصة طفولتها؟ سأل صديقي الجالس خلف شاشة اللاب توب

أجبت:

قبل الإجابة، لابد أن تعلم، إن ريم كانت تعيش معنا وبعد وفاة والدي انتقلنا إلى بيت آخر ولكن ظل هذا البيت في ملكيتنا لعله ينفعنا مستقبلا، وبالفعل ها نحن في غرفة مستقلة من هذا البيت نكتب فيها روايتي، هنا عاشت ريم ، قبل أن اشطح بخيالي ، هل تعلم ماذا يعني انتقال بنت في سن الطفولة كانت تعيش حياة أقرب إلى البساطة ثم تنتقل لحياة أكثر رغدا وثراء؟. كأن طاقة نور فُتحت أبوابها في ليلة القدر، تأمل معي، باب الفيلا يفتح للداخل ، ونرى ضياء عظيمًا ،وشيئا فشيئا تدخل طفلة بسيطة ترى منزلا واسعا ، عيناها تتسعان بمساحة الفيلا ولا يكفي اتساعهما لتحضن كل هذا البذخ والرفاه، هل تتخيل حينها ماذا يدور داخل ذهنها؟، كل شيء يتحول ويتبدل.. كأنها لقطات وصور سينمائية متسارعة: صالون ذهبي اللون، نجف كبير الحجم ذو إضاءات مبهرة، خدم يصطفون على يمينها ، لوحات غالية الثمن مُعلقة على جدران لم تر حجمها من قبل ، كل شيء تبدل ، كيف ستستقبل كل هذا الترف والنعيم ؟ ومع ذلك كانت هناك بوصلة داخلية تشير أنها انتقلت من الدفء إلى البرودة، شعرت بإحساسها هذا في أول ليلة، وهي نائمة على فراش جديد له رائحة مميزة في غرفة مستقلة، بالتأكيد كانت تبكي، تبكي لأنها تشعر بعدم الاستقرار: وفاة الأب البديل، انتهاء الدفء، الخوف من المصير المجهول

-لم تجب على سؤالي. كيف علمت بأن هذه هي قصة حياتها؟

-ببساطة لأنها هي من كتبت هذه القصة

-ماذا قلت؟ سأل بفزع

هي من سطرت هذه القصة يوما ما، كتبت وملأت الأوراق وجف الحبر، تلك المخطوطات كانت موجودة ولكنها اختفت بشكل مفاجئ. وأخال أن ريم لو علمت بوجودها وعثرت عليها؛ لانتهى كل شيء.

الفصل الثالث

لم يكن سلوك هيدي غريبا كما اخبرتها ريم، بل هو قلقها يكشفه توترها. كانت تراقب ريم وكأنها تسجل تفاصيل ملامحها ، تقرأ ايماءات جسدها، وخاصة عندما أخبرتها بتقديم موعد الزواج إلى تاريخ ١٩ فبراير. وكما توقعت. كانت ردة فعلها عنيفة غير مبررة، لقد قذفت بالحجارة في البحيرة الراكدة وسمعت صوتها وهية ترسب في الأعماق ولم تتبق سوى دوائر الأمواج المتلاحقة المتباعدة. لم تنس تلك الليلة، ليلة 19 فبراير، رغم أنه مضت ثلاث سنوات عليها، لنعد إلى الأمواج المتلاحقة، أول موجة كانت هي ذكرها اسم علاء بكل أريحية بل وتتذكر أنه كان يلاحقها ويبعث الريبة في نفسها ، كانت القصة كلها معي، عندما كنّا نتقابل كانت تحكي وأنا أغلي

، وددت لو أقتل هذا العلاء في كل وقت وكل حين ، شيطان ملون ، يحب الجحيم للآخرين وخاصة لريم ، ومع ذلك لم يمسسها قط، تحرش بها لفظيا دون يرتكب حماقة خطيئة جنسية، وما اصعب الذبح بكلمات قاسية كالسكينة الباردة !، تمر الأيام والشهور ويتزوج علاء، وكانت زوجته هي صديقة ريم ، وهنا دبرنا الخطة.

علاء كان مدمنا على الهيروين. والده لا يعلم قطعا ذلك، لكن هذا الادمان جعله ضعيفا جنسيا؛ يعاني من ضعف الخصوبة بالرغم من متابعته علاجه تحت إشراف والده، ومع ذلك فإنه لفترة طويلة لم ينجب، وحدثت المعجزة وحملت زوجته ، ودبرنا لحظات الانتقام ، كانت القصة مختلفة قليلا عما سطرت ريم ، القصة لم تكن بها رسائل.. ريم أصرت أن تكون جزءا من بيت علاء، وبالفعل اقتربت كثيرا من مي زوجته وأخبرتها الكثير من الأسرار العائلية، فعرفت بإدمان علاء للمخدرات وتأثيره المباشر على الإنجاب، وفي يوم من الأيام طلبت مي من ريم اصطحابها إلى معمل التحاليل الطبية لإجراء بعض التحاليل الخاصة بها، لم تتردد مي وذهبت معها ، وظهرت النتيجة بأنها حامل، كانت مي ترفع رأسها ممتنة وشاكرة إلى السماء وهي تشعر بفرحة عارمة، ولكنها أخفت عن علاء الخبر، أرادت أن تقوم بعمل مفاجأة له ، أعدت المنزل إعدادا جديدا.

كان خيال لهيب الشموع يتراقص على الجدران مع سمو الموسيقى الرومانسية الهادئة التي متلأ الأجواء ، ارتدت قميص نوم وردي اللون ، وتعطرت بعطر أنثوي جذاب استعدادا لليلة مثيرة يختلط فيها الحب بالمفاجآت، في تلك اللحظة كلمتني ريم وأخبرتها بأن تفعل الآتي.

***

أكنت تريد أن تحولها إلى شيطان هي الأخرى؟

-الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، سنوات طويلة عذبها علاء وأمه ، كانت تحاول النسيان ولكن لم تنس، في ذلك اليوم ، اتصلت ريم بعلاء وطلبت منه أن يُجري عددا من التحاليل الخاص بالخصوبة بصفة عامة، اندهش لطلبها ولكن دهشته ما لبثت أن تبخرت عندما علم أن زوجته سوف تقوم بعمل نفس التحاليل بشكل سري، وكنت قد اتفقت مع المعمل الذي كان يعمل فيه صديقي.

ذهب علاء، وقام بإعطاء العينات المطلوبة، وكانت النتيجة مخيبة للآمال ، حركة الحيوانات المنوية واللزوجة وعدد الحيوانات المنوية الحية ،وشكل الحيوانات المنوية . كل المعطيات والنتائج لم تكن مبشرة بخير أبدا، وقيل له أنه من الصعب أن تنجب، خرج علاء من مركز التحاليل وهو محبط للغاية، لم يشأ العودة للبيت ، لولا أن مكالمة أتته من مي تلح عليه بالعودة بسرعة. فهم من صوتها أنها فرحانة، لكن ما المناسبة؟! عاد إلى البيت سريعا ووجد كل شيء قد تغير، وبابتسامه عريضة قابلته مي وبعد القبلات الحارة و الأشواق الملتهبة أخبرته والقلب يخفق من شدة الفرحة بأنها حامل، لم يتحمل علاء كلامها.

في وقت لاحق أخبرت مي ريم بما حدث :

أمسك بذراعي وقذفني إلى الوراء , أن يتصرف كمجنون، لطم وجهي في همجية، صرخت بأن يكف عمّا يفعله، جن جنونه ولم يتوقف،

كاذبه،

حقيرة، هكذا كان ينعتني،

فاجرة،

أنا غير مكتمل الرجولة،

لا أنجب،

من أين لكِ هذا؟

لم تصدق أذناي ما تسمعه ولا عيني ما تراه، معقول !، حاولت النهوض من مكاني، فإذا هو يسبقني إلى الصالة، الطاولة التي تخيلت انها ستشهد عناق حار وتبادل قبلات ساخنة، رأيت النار تبدأ منها ثم تطير بسرعة البرق وتتشبث بكل ما هو قماش، واندلعت الحرائق في لحظات، لم استوعب ما حدث وهربت من براثن الجحيم ومن بين أنياب الذئب الهمجي الذي كان عويله يصم الأذان، ، مات علاء مخنوقا يوم اكتشف بأن هناك ابن له سوف يظهر للوجود.

***

من خلف الشاشة سأل صديقي:

هل علاء ضحية؟

أجبته بحكمة العقلاء :

كلنا ضحايا وجناة، المجتمع لا يتجزأ، سواء كنت ثريا أو فقيرا، لو فكرت قليلا ستجد أن علاء ضحية وجانيا، ضحية سكوت أبيه، وجبروت أمه، وجاني لأنه وجه طاقة شره إلى ريم المسكينة. لذلك لا تحب ريم ذكرى عيد ميلادها، كان دائما يبعث في نفسها الهم والغم. أمام علاء ووالدته وعمها، رفضت الزواج في ذلك اليوم لسبب نفس. إنها تتطير منه، تتشاءم منه. ورغم أنه يمكن أن يجعلها سعيدة، إلا أنها رفضت وبقوة.

***

"الحنين إلى الماضي من فطرة الإنسان الطبيعي يا صديقي".

قلت له هذه العبارة وظهري ممدد على السرير كأنني أرتاح قليلا من مشوار طويل ، الماضي، كلمة لها بريق العَبَق، نوستالجيا، الحنين، الصفاء، الحب،النقاء،أن ترى الدنيا من زوايا ضيقة، تتسع حلقاتها كلما كبرت قليلا في العمر. ريم لا ترى معنى للماضي إلا في طفولتها، وعندما كبرت عاشت مراهقتها في مستوى آخر، فارتبكت. مشاعرها ترنحت ، هناك فرق شاسع بين المدارس الحكومية والمدارس الخاصة ، بين التراب المعفر القاسي والبلاط الصقيل الناعم، كانت تحب أن تسمع مشاكل المراهقين من خلالنا نحن المجتمع الفقير. مراهقة أولاد الذوات تعني التنمر أما مراهقة أولاد الطبقة الشعبية فتتبدى بكل آخر ، سن المراهقة له طريقان لا ثالث لهما، إما النفس اللوّامة أو النفس الشاردة، إما طريق الحق أو طريق الضلال، إما الجنه أو النار، ولكن في الحقيقة هناك عدة مسالك ، هناك من ابتلعه الشارع حتى هضمه تماما ، وهناك من هُدى إلى المساجد والجماعات وعن الخطأ تنفرج أبواب كثيرة: أبواب الحلال والحرام أبواب الجحيم وأبواب الجنة، وهناك من اتخذ طريقه إلى نادي السينما باحثا عن دور يتألق فيه ، وهناك من كان مثل النهر الصغير يمشي بين الأحجار في هدوء وتواضع كأنه فتاة عذراء تخرج إلى الشارع لأول مرة حاملاً كُتبا ومجلات وروايات للجيب في محاولة أن تكون عزلته في أحضان مكتبته هاربا من الواقع محتضنا أفكار وعقول الآخرين.

ومع ذلك لم يسلم البعض من التمرد ولا التنمر، القط الذي يريد أن يتحول إلى نمر، وكل له طريقته وله أسلوبه في التفكير.

حكيت لها عن (أشرف) ذلك الطفل النحيل، ذو الرأس الهضبة، شبهته بالقط المتنمر. على سطح البيت مكان ما مُخصص لمراهق أراد أن يفتل شاربيه قبل الأوان، في إحدى زوايا السطح يوجد "بلاطة " غير ثابتة لو رفعناها لوجدنا الآتي: علبة سجائر ولا بد من وجود قطع من اللبان وزجاجة عطر صغيرة وعلبة ثقاب.

كل ذلك مدفون تحت "البلاطة " وفوقها أشياء أخرى مثل جرائد ومجلات قديمة او صندوق لعب بداخله ألعاب محطمة. لماذا؟ حتى لا تُثير الشك، كلها أشياء لتجنب مواطن الشُبهات، ولو كانت هناك فرصة أفضل فهي نط السور القصير الفاصل بين العمارات ووضع أدوات الجريمة في سطح عمارة أخرى وقد يُتهم بها شخص آخر إذا انكشف أمرها.

أشرف يتوجه يصعد إلى السطح مرتين في الأسبوع ولا يعدم حجة لاقناع أهله وقد يصعد السطح أولا قبل الدخول إلى البيت أو بعد الخروج منه، كل الطرق تجعله يصل إلى الدخان الأبيض، أما كيف عرف الأهل بهذه الجريمة؟ طبعا هو أحد الجيران الذين تصادف وأن استنشق شيئا يحترق وتتبع مصدر الرائحة ليجدها تنبعث من في هذا المراهق. وبعد تنمر سيعود إلى مرحلة القط المُسالم ولكن ليس لمدة طويلة.

ضحكت ريم طويلا عندما علمت بما حدث له بعد ذلك.

أما (حازم) الطفل الذي يسكن في أول الشارع ، البدين ، فهو قط من نوع آخر. وقف أمام تلاميذ الفصل قبل دخول الُمعلم وتقمص شخصية الإرهابي يتوعد الجميع بالقتل والإرهاب إذا لم يتوبوا إلى الله ويعودوا إلى منهج الله، وأن التعليم الدنيوي حرام والموسيقى من مزامير الشيطان والحياة برمتها فسق وأننا جميعا نتبع خطوات الشيطان وذريته هم أولياء النار، ثم يدلف المعلم ويحمله من قفاه وسريعا يُلقى به أمام مدير المدرسة كما يلقى بالسجين أمام وكيل النيابة أومأمور الشرطة، ويبدأ التحقيق أوله سلام وأخره نصيحة، ينصحه الذين سيتقمصون بدورهم شخصيات الأب

أوالواعظ أوالحكيم، بالابتعاد عن هذا الطريق، و أن الإسلام دين يُسر...الخ

يخرج (حازم) وفي رأسه أمر خطير أن الجميع اقتنع بتمثيله وأنه أتقن الدور بامتياز، ومنذئذ سيسلك مسلكه إلى طريق الدعوة !!

أما أنا فكنت القط المثقف،

الذي يقف أمام مكتبته وبكل فخر يتباهى بجملة، لا يعرف حتى من أين نقلها؟

(المكتبة هي المكان الوحيد الذي يجمع بين الأموات والأحياء. بين الصدق والكذب. بين الحقائق والخرافات)

الحقيقة أنني لم أكن مثقفًا، ولا كاتبًا، قد أكون قارئًا، لكن حبي للشهرة وللثراء هو ما قادني إلى هذا الطريق، أشبه النملة في خصلة الادخار، أجمع الكتب ولا أقرأها، وإذ أقرأ منها فلا أستوعب شيئا، أو أحاول التركيز فأقص على أصحابي ما أقرأه، تماما كما أفعل الآن معك صديقي. إن ما يجذب الجمهور هي الفقرات الحسية "مناظر القصة " يسيل لها لُعاب المراهقين، هم أكثر انشدادا للتجسيد السافر للمرأة أو مشاهد القبلات العنيفة وهكذا، فإذا أشرت إلى معلومة، فهي خاصة بالفنانين من أخبار النجوم، ثقافة زبد البحر.

-هل تذكرين أيمن؟

سألت ريم. كان طفلا جميلا، من عائلة في مستوى عائلة عمي الدكتور أمجد، كانوا أثرياء، وكنت أشبهه بالقط الهارب

، أذكر جيدا يوم هرب من البيت، كان هاربا من جحيم جدته التي ترعاه، فارق السن كان واضحا وضوح الشمس، أبوه وأمه يعيشان في إحدى دول الخليج، وهو أصغر إخوته، تميزت مراهقته بعدة أمور، كان قارئا جيدا، يدخن بشراهة، يتحدث إلى الفتيات بلا تصنع، تتلخص فلسفته في أن اقتراف الخطأ البسيط أهون من ارتكاب الخطأ الكبير، كان يخطب فينا قائلا:

(أنا أدخن ولكنني لا اقترب من المخدرات، أُحب فتاة ولكنني لا أمارس الرذيلة معها، أرتدى ملابس على الموضة ولكنني لا أسهر مع أصدقاء السوء).

وهكذا، يفعل الشيء ويقوم بالتقليل من شأنه ويذكرنا بعظمة الذنوب الكبرى، دهاء قط طالت أنيابه وأظافره وخدش جدته المسنة العجوز وهرب، وبعد مرور الليالي السوداء، عاد بعد فترة غياب ولم يُسمح له بأن يرانا. صار يذاكر الدروس وصار باب بيتهم مفتوحًا للمعلمين فقط. كان باب المدرسة قد أغلق في وجهه، قُطع سلك الهاتف وانقطع تماما عن الناس وعن أصدقائه. وضع في عزلة إجبارية وكأننا نحن من كنا سببا في هروبه الكبير!

***

-هل انهيت هذا الفاصل؟

ضحكت رغما عني، قمت من فوق فراشي واعتدلت قائما ثم اعتدلت وجلست جلسة التلميذ أمام المعلم الذي سوف يسأله سؤالا مباغتا ليس له وجود في المنهج الدراسي.

فهم صديقي ما رآه بلغة الجسد وسأل:

هيدي. أين هي من كل هذه الأحداث؟

بكل هدوء: هيدي. ليس هذا اسمها الحقيقي أولا

-وثانيا؟

-ليست خالة ريم

-.....

-صمتك غريب لماذا لم تندهش وتسأل بملء فِيك: ماذا؟ ها ها ها

الحقيقة أن السيدة هادية فاروق الشهيرة بـ هيدي. ظهرت في توقيت غريب جدا. وبناءً على طلبها كانت تلك القصة الوهمية هي حلقة الوصل بين ريم وهيدي، سأحكي لك بالتفاصيل القصة التي كتبتها وماذا حدث بعدها.

***

على ظهر الظرف البني اللون كُتب "سري للغاية "، لا يعلم كيف وصل هذا الظرف الغريب إلى مكتبه ولكنه على أي حال قد وصل، الغموض حول كلمة "سر" يُثير لُعاب أي صحفي كبير مثله وخاصة أنه يشغل منصب رئيس مجلس إدارة جريدة "الرأي"، وهذه الجريدة لها ثِقل عند

الحكومة قبل الناس، أعدّ مشروبه المفضل (النسكافيه البلاك) وفتح الظرف وقرأ:

" إلى السيد المحترم فوزي الهبيان /

تحية طيبة وبعد،

أنا عادل ، شاب في الثلاثينات ، صحفي ومُعد برامج "التوك شو "لبعض القنوات الفضائية ، لن أطيل عليك بتفاصيل لن يكون لها أي أهمية ، ولكن الأهم هو أن لديّ شغف بمعرفة المجهول وقد قرأت كثيرًا عن التنبؤات وعن أصحابها ولاحظت أنها جميعا كانت في القرون الماضية خصوصا فترة الظلمات بأوروبا وانحطاط مصر وغيرها من الدول ، وذاعت شهرة الكثير من التنبؤات ، وكتبت قصص عنها، ولا أعلم إن كانت هذه الروايات صادقة أم أنها تحمل أنصاف حقائق أم هي أكاذيب أم دروب من الخيال.

إن الكثير من الأمم عبر القرون ، تعيد صياغة تاريخها ، لأنها تخشى ما فيه من حقائق ، الأكاذيب في كثير من الأحيان قد تكون هي الوسيلة الوحيدة للهروب، ولكنها تبقى مجرد أكاذيب ، ومن يرغب في البحث عن الحقيقة عليه أن يكون مستعدًا لكي يتحمل ألمها ، وأنا يا سيدي واجهت العذاب والألم وسوف أواجه الموت.

ماذا حدث ؟

ذات يوم وجدنا اتصالا هاتفيا من إحدى السيدات لأحد ضيوف برنامج "....." الضيف كان شخصا معروفا في الأوساط الإعلامية ، بشكل مباغت لنا جميعا وجدنا أننا أمام نقاش حاد بين المُتصلة وهذا الضيف وقد فضحته وأخبرته بأشياء فعلها في الخفاء، ووسط ذهول الجميع ، ما كان منا إلا أن خرجنا فاصلا إعلانيا حتى لا يحدث أي أمر غير مرغوب فيه.
الضيف ثارت ثائرته وهاجمها وبشدة وانفعل عليها بعنف وانتهى الموقف بتبادل السُباب والشتائم ، في هذه اللحظة كأنني وجدت ضالتي وشغفي ، فقد أقسم الضيف أنه لا يعرفها ولم يسمع عنها فكيف عرفت بما حدث وما

سوف يحدث ؟ ، انتبهت لهذه المعلومة الصغيرة ولأن السر -أحيانا -يكمن في التفاصيل قررت البحث عن هذه السيدة بعد أن استلمت رقمها من الكونترول.

مضت أيام وأنا أحاول الاتصال بها ، الهاتف دائما مغلق ، ساورتني الشكوك أن يكون الأمر مجرد لُعبة من ألاعيب ضيفنا أو منها أو بالاتفاق بينهما من أجل التباهي والشهرة وأن يكونا حديث المجتمع ، ولكنني عاتبت نفسي فالجاهل هو من يتهم الناس بالسوء من غير دليل ، وليس لديّ حينها أي دليل ، دليلي الوحيد هو الإحساس بأنها حقيقة. آسف على الإطالة.. في الوقت الذي كنت أحاسب فيه نفس ؛ ارتفعت نبضات قلبي إلى الذروة، فقد كان رقمها ظاهرا أمامي على شاشة الجوال وكنت كمن يستعيد روحه إلى جسده وإلى الحياة. وأتاني صوتها الهادئ العذب ينبثعث من الجوال يستفسر عن سر الاتصال المستمر طوال الفترة الماضية ومن أنا ؟، عرفتها بنفسي وذكرتها بيوم مكالمتها... ....الخ ، الغريب أنها دعتني لأن التقي بها في مكان ما في الوقت الذي ستقوم هي بتحديده ووافقت طبعا، وانتظرت مكالمتها على احر من الجمر ، وقد كان.

قلبي يدق بعنف شديد وأنا ألمح تلك السيدة الخارجة من باب المصعد الكائن في نهاية الممر الطويل بالطابق الثاني في أحد الفنادق، اغتصبت ابتسامة باهتة ووضعتها فوق شفتي بصعوبة بالغة ، رأيت جمالاً صارخًا ، شعرا أسود متهدلا في عذوبة شديدة فوق كتفيها المستديرين ، عينان واسعتان كعيون المَهَا ، قوام رشيق ، تمشي في ثقة عجيبة ، قابلتني بابتسامة ساحرة جعلتني أرتجف ، اعطتني كفها الناعم ولمسته بسرعة وبلا وعي ، وبعد الأسئلة الروتينية عن الاسم والعمل وو.. بدأ اللقاء المرتقب وكان حوارا تلقائيا بعيدا عن التصنع بمفاجآت كثيرة.

نشأت في أسرة بسيطة وميسورة ، قام جدها بتربيتها بعد وفاة والديها. اهتم بحكايتها البسيطة لما جاءته يوما فرحة بعد أن تنبأت بنتائج اختبار مادة اللغة العربية لزملائها في الفصل قبل إعلانها من قِبل المعلم ، كانت تقول لكل طالب علامته، وصح كل ما أخبرت به زملاءها. كان جدها على صلة كبيرة بشيخ عظيم المقام، معروف لدى للناس كافة ، أخذها إليه وأخبره بما حدث. هذا الإمام قام بتقبيل يدها ونصحها بابتسامة لم تنسها، نصحها بألا تكشف لأي أحد "قدره" وأن عليها إخفاء ما ألهمت به ؛ حتى لا تتحول النعمة إلى نقمة ، والسلام إلى جحيم ، ولكنها لم تستطع ، تطور الأمر لديها وصارت تعيش في عذاب مستمر. ولم تحاول إخفاء قدراتها، وبمجرد ما يكون الشخص أمامها تخترق جسده بعينيها ، وإذا رأت صورة أو كف أي إنسان يتجلى أمامها كل شيء ، لم يتحمل زوجها هذا الهراء وانفصلا ، بدأ صيتها ينتشر واكتشفت ان الجميع يريد معرفة المستقبل ،وماذا سوف يحدث غدا ؟، لديها قدرات خاصة وليس لها علاقة بالجن والعفاريت ولا هذه الخزعبلات التي تصدر عن الدجالين ، لديها قدرة خاصة على أن يعترف الذي أمامها بذنوب وكبائر قد فعلها من قبل.

في أحد الأيام قامت بتسجيل صوتي لخالتها والتي كانت سببا أساسيا في خراب ودمار الكثير من بيوت العائلة. عرفت أنها كلما كشفت حقيقة، إلا وكان يظهر أمامها أشخاص تراهم في فنجان القهوة التي تعده بنفسها ، ويُصيبها صداع نصفي شديد عندما تطلع على أي كف. أصبح فالأمر يستفزها جدا ، ووصل بها الحال إلى مفترق الطرق عندما استشاطت غضبا بسبب حديث هذا الضيف يوم اتصالها بالبرنامج وحدث كما قصصت عليك من قبل ، لم يهدأ الضيف وأبلغ أمن الدولة عنها فزاروها فجرًا كالمعتاد وبعد التحقيق لم يجدوا أي اتهام وأفرجوا عنها ، في هذا الأثناء كان هناك من يقوم باتصالات رفيعة المستوى بالمخابرات الأمريكية ، وبالفعل تم إعداد ملف كامل عن حياتها هناك في أمريكا. فهمت سر إشراقتها ذلك اليوم ، فهي سوف تسافر بعد مقابلتي مباشرة ، ثم حدث شئ مباغت لي أنا شخصيًا ، أمسكت بكف يدي الأيمن وبعد تركيز عميق

أبلغتني بأن عمري قصير، لذلك كتبت لك هذه الرسالة لأنني أعلم مدى صدقك وضميرك في الحياة الصحفية ؛ فإذا وصلتك هذه الرسالة فاعلم انني قد أكون في عداد الأموات ، فالعيون التي كانت تراقبني لفترة طويلة مفضوحة و فصلي عن عملي أمر مخز و الحقيقة يجب أن تُدرك ولا يُخبر بها ، وأنا أدركت الحقيقة ، حقيقة العرب الذين اهتموا بمعرفة الغيب، لكنهم تركوا العلم وانشغلوا بالوهم ، والواقع أن الطبيعة البشرية لم تتغير كثيرًا، بل أدوات الحياة هي التي تغيرت ، وما يفعله المتقدمون في الغرب أنهم يطورون أدوات الحياة عن طريق البشر، في حين تسود في بلادنا العربية حياة بوليسية وثرواتنا ولا بد أن تورث إما لعائلات أوإما مؤسسات عسكرية، سيدي لا مكان ولا مجال هنا للديمقراطية ولا للعمل من أجل نهوض بلادنا،

مرة أخرى أعتذر إن كنت قد أطلت عليك. "

أفاق فوزي من صدمته وذهولهه بعد ما قرأه ورفع سماعة الهاتف وأصدر أوامر جديدة لعدد الغد وبالأخص الصفحة الأولى.

"اليوم التالي "

عنوان ضخم يتصدر الصفحة الأولى في إحدى جرائد المعارضة

اغتيال فوزي الهبيان رئيس مجلس إدارة جريدة (الرأي) بعد أن قام مجهولين بسرقته فيي مكتبه عند منتصف الليل

****

أحداث وتفاصيل هذه القصة لم تحدث من الأساس، فلا وجود لهذا الصديق المدعو عادل، ولا فوزي الهبيان، وأن سيدة الأسرار والخبايا، لم تكن إلا هادية او هيدي، إنما كان تمهيد لريم لتتعرف على هيدي .وبدون تفاصيل ليس لها داع، صارت هيدي صديقة ريم وبعد الحادثة ليلة ١٩ فبراير خالتها.

وحين ظهر حسني في ليلة لم تكن مقمرة، وظهر لي الشيطان مرة أخرى.

الفصل الرابع

٢٢ يناير

قصة الحب بيني وبين ريم مختلفة شكلا وموضوعا؛ لذلك ابتعدت عدة أيام عن ريم، كان الابتعاد مقصودًا، في تلك الأيام القليلة عادت بي الذاكرة في ليلة ربيعية جلسنا معا، أذكر أنه كان شهر مايو، السماء صافية، والليل منعش، ومحفز للقلوب بأن تفتح وتدلي بما في داخلها من مشاعر، أشرت عليها بفكرة عبقرية، فكرة أوحى بها إلي الجو المحيط بنا، وسألتها، ما رأيك لو أننا اثنان من المهاجرين في دولة ما وتقابلنا قدرا هناك وأحببنا

بعضنا البعض ولكن قصة الحب تلك لن تكتمل، وطلب منّا أن نكتب رسائل وداع لبعضنا البعض ،ماذا سنكتب؟

تعجبت في البداية ولكن سرعان ما أعجبتها الفكرة المبتكرة.

أمسكت ريم بالقلم وعلى صفحة بيضاء كتبت:

"كانت تلك هي المرة الأولى التي أراه فيها، عند نهاية الشاطئ ونهاية كل شيء وبداية كل شيء ، نهاية الظلام وبداية الضوء ، نهاية الليل وبداية النهار ، في منطقة لا أعرف اسمها ولا مكانها ولكننا أطلقنا عليه اسما جديدا فيما بعد ، كل شيء هادئ، الليل والبحر والسماء إلا جماعة من الشباب والشابات مدوا أرجلهم إلى البحر، كان البحر وديعا كأنه طفل له أصابع بيضاء ناعمة تدغدغ أقدامهم جميعا فيضحكون، استقروا على الشاطئ المبلل من الإرهاق ،ثم دبّ فيهم الروح و أخذوا يتمرغون على الرمل يمينًا ويسارًا كأنهم جثث رماها البحر أو غرقى نجوا من سفينة مجهولة وتحولوا إلى لحم ودم وصراخ ، كان يحكي عن حياته، حياته ورق ودمه حبر ودموعه دم، جذبني حديثه عن الحب و أثارني جملة عجيبة (الحب في العائلات الكبيرة مثل نار الشتاء يجلس الناس حولها ويتحدثون) ، حاولت الاقتراب منه ولكنه كان بعيد، الليل يحاول الرحيل وانا احاول ان افتح عينيه ، قص علينا من سبقني إلى عينيه وأذنيه من قبل ولم يبق لي إلا شيء واحد، هو ما أسعى للفوز به ، فهو من المهاجرين من أوروبا الشرقية إلى أرض الأحلام أمريكا مثلي تماما، نفس العرق واللون والدم، لم يبق إلا الروح، سألوه عن ماضيه، عن عائلته، عن شبابه فيما أفناه ، سكت طويلا، ورأيت ما لم يراه غيري، لو كانت الأضواء قوية لرأوا الشحوب على وجهه مثلما رأيتها، ظهرت حركات عصبية وانفعالات قد تولى اخفاءها ظلام الليل، إنه هارب من شيء ما، حتى في بلاد المهجر، الماضي يلاحقه بعد الرحيل عنها، تكلم كثيرا حتى ظهر الارتياح على

ملامح وجهه ، وتلك الحركات العصبية قد بددها النسيم البارد الذي ينفذ إلى الجسم فيشيع فيه الرجفة والقشعريرة، سخر من ذاته عندما أخبرنا بأن العام الماضي ذهب بهمومه ومرارته، وضحكت ضحكة عالية عندما أضاف وذهب معهم حافظة النقود و ساعة يدي وقميصي المفضل، عندها تلاقت الأرواح، وكان الصمت أقوى من اللسان والهدوء الدافئ أكثر صخبا يوجع الأذان، استدرجني من شاطئ ماء بحره كان ملحًا مُرًا، إلى شاطئ قلبه ماء نهره حلوًا عذبًا، لقد تحول حبنا إلى صداقة ثم إلى حُب روحي إلى حب الحياة المشتركة إلى علاقة كان فيها الجنس في المرتبة الثانية، عشنا معًا أروع وأجمل أربع سنوات في حياتي، لم نتزوج، حتى لا تتحول حياتنا من فيلم مُلون إلى فيلم أبيض وأسود ثم إلى فيلم بلا ألوان ، كنت أخشى الملل ذاك الفراغ البليد، الملل إفلاس في كل شيء والزواج رحلة طويلة، تستخدم فيها كل وسائل المواصلات ،من القطار إلى الطائرة، ولأن عُمري ليس طويلاً، قررت عدم الإنجاب، عندما يقرأ رسالتي سيعرف كل شيء، فأنا أفضل الحب القليل الذي يدوم على الحب الكثير الذي لا يدوم إلى مَن أعطاني الحب القليل والكثير معا، أشتاق إليك كثيرًا"

قرأت رسالتها دامعا وأمسكت قلمًا وسطر الشيطان الرسالة نيابة عني:

هي صاحبة أجمل شفتين وأعنف قُبلة في العالم ، كنت أعتقد أنها كانت تضع أفيونا تحت لسانها، وكلما قبلتها أطلقت ريقها في فمي ، فإذا بي مُخدر ومسحور، منذ ان وجدتها في تلك الليلة على الشاطئ وقد أزالت خمسة عشرًا عاما من ملامح وجهى ، كانت مثل عروس البحر التي هربت من أعماق البحار من أجلي ، الفتاة الوحيدة التي أسقطت حصوني الواحد بعد الآخر، اشتعلت مثل المصباح الكهربائي وانا احكي أحزاني، اخذتها كأنها احزانها الشخصية، إنها مثلي تماما جاءت من أوروبا الشرقية، كنت أحكي عن ذكريات قديمة، ذكريات طفت على السطح مثل زبد البحر وهو يطفو على الشاطئ، كنت في حالة ثائرة، أدافع عن نفسي، ظللت ثائرا بلا جدوى

من الانتقام، انها بقايا قاذورات قديمة، وبالرغم من انني القيتها في غير مكانها المناسب ، إلا أن ضحكتها انتشلتني من تلك الذكريات ووقعت في غرامها، بدون موعد ولا شروط ولكن الدنيا لا تعطي كل ما نريده، تمدد عفريتًا خبيثًا على ساقيها آناء الليل وأطراف النهار ، هذا العفريت كان ينام مفتوح العينين ويتقلب ويتثاءب، فلا تدري حبيبتي هل نام أم أنها غفوة بسيطة، انها تخاف اذا تحرك، وتخاف إذا سكت، مد رجليه في صدرها ووضع رأسه على قلبها،ومخالبه في عينيها وأنيابه في أرجلها ،لقد أسرها تماما مثل السجان وهو يُقيد سفاح مجرم بالأساور الحديدية ، كانت تبكي من يقظته وثورته ورفضه الكامل لها، تعذبت المسكينة، إنها تحس به ولا تراه، وتلمسه ولا تدري أين هو، الآن علمت سر رفضها للزواج وعدم الإنجاب، كانت تريد روح الحياة، هذا المرض اللعين، السرطان، نهش جمالها وبريق عينيها وقتل شبابها، لماذا أنا على قيد الحياة ؟ لماذا عاد الموت مرة اخرى؟ أيريد أن يسخر منِّي؟ كلا

لن أمنحه هذا الانتصار، الآن فقط أشعر بهبوط حاد في الدورة الدموية خفقان شديد في القلب، ضيق في التنفس، يداي ترتعشان والضوء خفت من عيني.

نحن الآن في آخر فصل من المسرحية الهزلية التي نحياها، انوار الصالة أطفئت، أضيئت أنوار المسرح. وارتفع الستار وظهر الموت"

***

-الآن فقط فهمت قصتها (نائمة إلى الأبد)، الغريب أنتما الاثنان اتفقتما على موت البطلة!

قاطعته ثم أكملت بالنيابة عن صديقي كثير التساؤل: لماذا؟

ما رأيك يا صديقي أن تكمل قصة الحب هذه من خيالك أنت؟

وضعت صديقي الذي فقد وجهه ملامحه في مأزق، لم يفكر كثيرًا، بل ابتسم في خفوت وكتب.. وبعد وقت قرأ عليّ بصوت مسموع:

(أنهى هشام كلماته الأخيرة، ثم وضع رسالته بجوار رسالة حبيبته الراحلة، قام من مجلسه وراح يضرب رأسه على الجدار، عندما يرتد إليه رأسه يتحطم برج من أبراج عقله، نزع ملابسه كلها وذهب إلى دورة المياه وحلق شاربه ولحيته ثم اغتسل، حينها ارتد طفلاً عاريًا من كل عقل، هرب من حياته واختفى الماضي وتبخر الرجل وانقشع الشاب، ولم يبق إلا الطفل، الطفل الذي أعد لنفسه حبلاً طويلاً، ظن أنه يلعب بالحياة كما كان صغيرا، ابتسم وهو يلف حبل المشنقة المثبتة في منتصف السقف حول عنقه، في انتظار ردع أمه أو ضحكة حبيبته)

ما رأيك؟ أعتقد أنها نهاية مناسبة لك. وقبل أن تبدي أي تعجب. أكمل قصتك.

***

تحدثت إلى هيدي وسألت عما إذا كان بالإمكان أن نخرج تلك الليلة ومعنا ريم، رحبت بالفكرة ، كذلك ريم ، وذهبت في الموعد المحدد ، ورأيت ريم في حلة جديدة، كانت مختلفة عما كانت عليه قبل ثلاثة أيام. كانت من قبل شاحبة الوجه قليلا، عيناها ذابلتان، وكنت على علم باللذي حدث معها وأنها كانت تعاني من قلة النوم وشدة الأرق والتفكير المستمر، بمجرد أن جلست بجواري تشتت انتباهي كليةا واندفعت بسذاجه كثور هائج في حلبة مصارعة الثيران، سألتها عن الكتاب الذي أهديتها يوم الحفل، نظرت إليّ بتعجب ولم تنبس ببنت شفة، اتساع عينيها ألجمني، نظرت إلى هيدي من

المرآه الداخلية للسيارة وقرأت في عينيها رجاء بأن أصمت وألا أتحدث حتى نصل إلى وجهتنا بسلام ، تحركت بالسيارة بضعة أمتار فرأيت ريم تشرئب بعنقها تجاه إحدى المحلات، أمعنت النظر للأ وطالعت العنوان (مكتبة الحرية) ، وكان هناك شاب يستند بظهره على الحائط يدخن سيجارة، التفتت ريم بشكل مفاجئ ناحيته وكأن هناك اتصال خفي بينهما، كنت أعرف هذا الشاب، يُدعى حسني، صاحب مكتبة كانت ريم ترتادها. حدثتني عن هذا المكان كثيرا عند زيارتها إلى هيدي، حدثتني عن قصص الرعب روايات الغموض التي انتشرت في الآونة الأخيرة و حثتني أن أكتب مثلها، شردت ريم عن الوجود قليلا وكأنها نائمة، وفي غفوتها انتفضت بشكل مفاجئ وصاحت صيحة رهيبة كأنها رأت كابوسا. أوقفت قلبي والسيارة معا.

***

الزمن الذي عادت فيه ريم إلى الماضي كانت شخصية هشام فيه تمثل صمام الأمان. إنه العقل المدبر الذي يهندس حياتها، الحياة اتخذت منعطفا كئيبا ومظلما بخصوص ريم وخاصة بعد وفاة علاء، تربصت زوجة عمي بريم، بأفعالها وأقوالها، ولا سيما عندما علمت بعلاقتنا الخاصة وبنية تقدمي لطلب الزواج منها، ولم تتردد تلك الحيزبون الشريرة بوضع المقالب لإلحاق الكوارث بنا، لم تعتبر من موت علاء ،ولدها الوحيد ولم تتعظ من شر سواد القلوب ، ولم تبالي بحرق قلوب الآخرين ، كانت عمياء تماما، وهنا ظهرت هيدي على خشبة المسرح، بعد وفاة عادل ومعرفتي بالذي حدث معه ، استعنت بهيدي ، سيدة بصارة وعلى قدر كبير من الوعي والجرأة وحسن التصرف، وفي نفس الوقت كانت هيدي تبحث عن الأمومة والحياة الهادئة والبسيطة، هل تؤمن بأن كل منهما في احتياج إلى الآخر دون أن يعرف كلا منهما ما الذي يريده تحديدا؟. هيدي وجدت في

ريم الحلم القديم ، الأمومة، مشاكل مراهقة تحتاج إلى وعي كبير، خاصة وأن ريم فقدت أباها وأمها في حادث أليم لانعرف تفاصيله.

و كنت بحاجة لمعرفة هذه الأسرار عن طريق هيدي، وريم كانت بحاجة إلى القلب الدافئ والعقل الراجح. منذ وفاة أبي، وأنا أحب ريم وأريد أن أتزوجها ، أي أن كل الطرق مفتوحة بعضها على البعض ، هل رأيت هذه الانسيابية من قبل؟

***

ذات ليلة حكت ريم قصتها، ويومها تأكدنا أن نفسية زوجة عمها غير طبيعية، وأن وفاة ابنها علاء وإهمال زوجها أدى بها إلى هلاوس مرضية قادتتها إلى الجنون، وصفتها ريم بأنها كانت أشبه بالساحرات، شعر أشعث، عينان حادتان، نظرات مخيفة، صوتها أشبه بفحيح الأفاعي. قصت عليهنا قصتها وبعدها هربت إلى بيت هيدي:

"منذ خمس وعشرين عاما كنت أعمل ممرضة في إحدى المستشفيات الخاصة ، وكان العمل اليومي شبه روتيني لا جديد فيه، حتى أتى إلى المستشفى طبيبان فرنسيان من أصول مغربية ، لم يرتح لهما أحد منذ البداية ولا نعلم سر وجودهما وما الداعي لعملهما بهذا المستشفى الخاص ، الغريب في الأمر أنهما لا يعملان إلا ليلاً ، لم يكونا طبيبان عاديان مثل غيرهما من الأطباء، فقد خُصصت لهما غرفة مجهزة بكل أدوات التشريح ومواد حفظ الأعضاء، و غير مسموح لأحد الدخول ليلا أبدا، كان يسمح لنا بالدخول إليها في وضح النهار نعيد ترتيبها ونعقم الأدوات وننظفها ولم يكن هناك شيئ غير عادي حتى مساء تلك الليلة .

من المفترض أن أعود لمنزلي ليلتها ولكن مغصا شديدا أصاب زميلتي ووقعت أمامنا كأنها حيّة تسعى ، أعطيناها حقنة مسكنة وعلقنا لها المحاليل

ونامت، وكان لا بد من السهر بجوارها في تلك الليلة ، وغالبني النوم من شدة إرهاق العمل ..لا اعلم كم ساعة نمت بالضبط..قمت فزعة على صوت صراخ شق سكون الليل ، قمت مسرعة وأضأت نور الغرفة فوجدتني وحيدة، زميلتي التي كانت نائمة بجواري لم تكن موجودة ، ظننت أنها شُفيت وقامت لأداء عملها ولم تُرد ازعاجي، ولكن الصراخ كانت تزداد حدته، ثم سكت فجأة ، ارتبكت وقد جف الدم في عروقي ، هرولت مسرعة وخرجت من الغرفة لأبحث عن مصدر الصراخ ، كان كل شيء هادئا في الممر وكأن شيئا لم يكن. غير أنني سمعت من الغرفة التي يعمل بها الطبيبان حديثهم باللهجة الفرنسية وأصوات أقدام مسرعة فوق أرض الغرفة ، اقتربت بحذر لأجد الباب مواربا ولم يكن قد أُغلق جيدًا ، واتسعت عيناي من الصدمة وشهقت بفزع عندما وقعت عيناي على زميلتي التي كانت مريضة منذ ساعات، وعندما رجعت خطوة للخلف كان هناك من أمسك بذراعي و كمم فمي بمنديل وأدخلني بقسوة إلى الغرفة ، لأجد أن هذه الغرفة ما هي إلا غرفة عمليات جراحية. كانت زميلتي تحت تأثير البنج..وكانوا يشقون رأسها وبجوارها هيكل عظمي غير كامل لمتوفى مات منذ سنوات بعيدة ، خيروني بين الموت أوأن أساعدهم ولأنس ما رأيته، كنت أسمع كلامهم بدقة متناهيه ، وكان الشخص الذي أمسك بي يطحن العظام بكل قوة ثم يضعوها في قِدر به سوائل مختلفة ويعرضها للغليان ويقوم بعدها بتصفيتها عدة مرات حتي يحصل على قدر مُركز منها ، وهم يقومون بحقنها في رأس زميلتي، لا أعلم لماذا يحدث كل هذا ؟

إلا أنني رأيتهم يعيدون كل شيء لمكانه مرة أخرى يخيطون الرأس بخيط التجميل، ويعيدون زميلتي إلى غرفتها حيث بقيت يومين وقبل أن تختفي عن الأنظار.

وتمر الشهور لتعود الحياة إلى طبيعتها في المستشفى، إلى أن أتت زميلة لنا تحمل صحيفة الأهرام وبها تحقيق مثير عن القبض وعن عصابة تسرق

الآثار بطريقة حديثة ، وعندما طالعنا الصحيفة وصورة الجناة كانت زميلتي من ضمنهم بين عدة فتيات واقفات وحين قرأنا التحقيق وجدنا أنها وغيرها قد تعرضن للقيام بعمليات جراحية في رؤوسهم جعلتهم بعدها يستيقظون ليلا بشكل لا ارادي ويسافرون لساعات في صعيد مصر حتى يستشعروا وجود آثار في إحدى الجبال ويأمرون من معهم بالحفر في مكانهم ، ولكن القدر أوقعهم في شر اعمالهم ، فقد أمروا العُمال بالحفر ثم ثقلت رؤوسهم وغرقوا في سُبات عميق ليجدوا أنفسهم قد وقعوا فوق بعضهم البعض وعندما استيقظوا كانت الشرطة في انتظارهم وألقت القبض عليهم بعد اعترافهم بكل ما حكيت.

ساور الشك قلب ريم عندما سمعت القصة وخمنت استحالة حدوثها وخطر في رأسها سؤال ووليكن سلاحًا تواجه به قصة زوجة عمها الخرافية، سألتها عن سر النوم ليلاً رغم أنهم كانوا في كامل يقظتهم، ابتسمت في مكر وفهمت ما ترمي إليه ريم، وأخبرتها أن "حارس الآثار " في تلك الليلة هو من قام بتنويم الجميع بعدما سمع النداء.

قطبت ريم حاجبيها وسألت: نداء مَن؟ ومن هو ذلك الحارس؟

اعتدلت زوجة عمي في جلستها وأزاحت حجابها من فوق رأسها وأدارت ظهرها لريم التي اتسعت عيناها من الذهول عندما رأت شقا قديما ملتئما في رأسها وقالت: نداء منّي للجن " حارس الآثار "، فقد أرادوا خداعي تلك الليلة ولكنني كنت أقوى منهم جميعا.

***

-ولاذت بالفرار

-وخطبت ريم غصب عن العم، الدكتور أمجد، وما بين زيارة ريم لمكتبة الحرية وذكرى عيد ميلادها، حدثت محاولات منع الزواج من قبل عمي، ولم يكن أمامنا سوى حل واحد، المواجهة.

الفصل الخامس

جاء يوم 25 يناير وريم هي من لا حظت رقابة هيدي، بدأ يساورها القلق ويحيط بها الغموض ، استشعرت بعدم الأمان وكادت تشير إلى أن هناك أمور خفية تحدث في البيت وهناك أمر غامض بيني وبين هيدي ، خشيت هيدي أن يذهب عقلها بعيدًا وتظن أن هناك علاقة سرية بيني وبين هيدي ، فقامت بإعادة تأهيلها لمعرفة الحقيقة، ذكرت اسم عمي وعمها الدكتور أمجد، وتذكرت -رغم السنوات البعيدة- زيارتنا أنا ووالدي في ڤيلا عمي لأخذ ريم وهي طفلة رضيعة ، بحكم حجمي الصغير جدا وعُمري الأصغر ، وجت فيلا عمي أشبه بالقصور التي نراها في التلفاز، لم أنس أبدًا هذا

الاندهاش والانبهار الذي وقع في قلبي وتمنيت أن أمتلك مثل هذه الفيلا يوما ما ، فرق شاسع بين الجُحر الذي نعيش فيه وبين مملكة لا أعتقد أن لها حدود ، هدوء قاتل ، أثاث فخم ، نظافة تشعر بها وستنشقها، دلفنا داخل مكتب عمي والذي كان يُعد متحف مستقل عن المملكة ، مكتب فخم ، مكتبة كبيرة تضم بين أركانها كتب ومجلدات ذات غلاف سميك ، مكتوب عليها عناوين بلغة غير اللغة العربية التي أعرفها ، فيما بعد علمت من ريم أنها كتب ومراجع طبية ، صور لعمي متنوعة، منها صورة كبيرة شخصية مزينة ببرواز ذهبي، وصورة أبيض وأسود يوم تخرجه من كلية الطب ، وإطارات سوداء تحمل في قلبها شهادات تقدير متنوعة، بخلاف الأثاث القيّم، ما كل هذه الفخامة، هل من ممارسة الطب فقط ؟ لم ننتظر طويلا حتى ظهر عمي ودخل الباب في هدوء، دلف إلى الغرفة خالعًا نظارته الشمسية لتظهر عيونا غائرة مخيفة وملامح حادة، لم يكن يشبه أبي في شيء، رجل طويل القامة ، عريض المنكبين، بياض بشرته اختلطت بحمره ، كأنه من عالم آخر وبشر ثاني لا أراه في عالمي الشعبي، سار في وقار وهيبة ثم جلس و رمقنا في هدوء يُحسد عليه ، كانت العيون تلاحقه بخوف واضطراب، أما هو فكان يسخر منا بابتسامته القاتلة ، كان أبي ينصت إلى صمته بكل جوارحه ، أخرج من جيب معطفه علبة الثقاب ، واشعل سيجارته في هدوء ، ونفث دخانه في ثقة ، وأخيراً وجه كلامه إلى الجالس أمام مكتبه وحدث حوار لا أذكر منه شيء، ولكن أذكر أن طبيعة الحوار ليس به حميمية الاخوة، سنوات فراق بينهما، فجوات عميقة، جبل جليدي لم تذب ثلجها أبدا ، بعد فترة من الوقت خرجنا ومعنا ريم ،ثم

استقل الرجل المهيب سيارته أمامنا دون أن يدعونا لمصاحبته

***

وبعد عشرين عامًا أو أكثر وقبل ليلة ١٩فبراير بعدة أشهر، وقصة حبنا تزداد إثارة واشتعال ذهبت إلى عمي مرة أخرى لطلب يد ريم، بمفردي،

نفس الفيلا، لكن بلا روح، لم تختلف كثيرا عن الماضي، الزمن فعل فعلته مع الإنسان، لازال ذو هيبة ووقار، اشتعل رأسه شيبًا، وارتدى نظارة طبية ذات إطار ذهبي اللون، ملامح صارمة.

-أنت هشام؟ باستنكار وتَعَالِي سأل

أجبت بخوف: نعم

-ماذا تريد؟ سأل بشكل حاد وكأنه يريدني أن أدخل في الموضوع مباشرة بدون مقدمات

-الزواج من ابنة عمي ريم. بكل وضوح أجبت

ضرب بيده على سطح المكتب بطريقة أرعبتني، فر الادرينالين مرتعبا إلى خلايا جسدي وكأنه يريد الفرار لا المواجهة، انطفأ نور قلبي وذبلت عيناي من تلك المقدمة التي لم يصدر فيها أي قرار، سرعان ما ضحك بسخرية واستهزاء، ثم وجه إليّ الاتهامات مثل وكيل النيابة وهو يُملي على الكاتب:

أمرنا نحن الدكتور أمجد غانم، طبيب النساء والتوليد برفض طلب المدعو

ما اسمك؟

آها. هشام إسماعيل غانم، والذي تفضل سيادته بطلب الزواج من الآنسة ريم أحمد غانم، وسبب الرفض هو محاولته للاحتيال على الإرث التي بحوزة القاصر الغير بالغه والغير رشيدة ريم، بالرغم من أنه من نفس العائلة إلا أنه من فرع آخر حيث ابتعد أصل الفرع منذ زمن بعيد وآثر الحياة البسيطة الرتيبة الروتينية، ولم يتواصل مع الجذع منذ أن اشتد عوده، وها هو الآن الفرع يريد العودة إلى أصل الجذع وهو طلب مرفوض رفضا كليا

قام من مكانه ورأيت شرر كالقصر يتطاير من عينيه وهو يصرخ في وجهي:

أنصت إليّ جيدا، إذا كنت تريد أن تغير حياتك ليس على حساب هذه العائلة، فهمت؟ اختر عائلة أخرى، أغرهم بشهادتك الملعونة ووسامتك الجذابة وانضم إليهم في صمت.

وقبل أن تغادر من هنا لابد و أن تعلم شيء مهم أن ريم ابنه غير شرعية من الأساس، لولا أخي الأصغر الذي هو عمك، كان سكيرا وعربيدا؛ لما لطخ سمعة العائلة في الوحل وأخطأ كما يخطئ الشباب في رعونتهم وطيشهم، أنت لا تعلم أي معاناة حصلنا عليها تلك الفترة، والد ريم تزوج تلك الطائشة تحت تهديد السلاح، وسجلت باسمه ولولا ذلك لكنّا تخلصنا منها منذ ولادتها، حظه أنه مات، وأم ريم تركت لنا البنت وهربت، اعطيناها لوالدك كأمانه ثم استردت الأمانة فقط لأنها من العائلة.

اسمعني جيدا

رأيت وجهه ينتفخ من شدة الغضب وزاد احمرارا عندما أمسك بتلابيبي ووجدت أنفاسه تلاحق انفاسي:

ابتعد عن ريم وإلا.

وبصوت فحيح الثعبان اقترب منّي وهمس في أذني: قتلتك.

كنت في حلم من أحلام اليقظة وأنا خارج من الفيلا، رغم حرارة الطقس إلا أنني شعرت ببرودة تجتاح وجهي وهدأت أنفاسي واستقر نبض ضربات قلبي ولم يكن في رأسي إلا الخطط البديلة.

***

-علاء وزوجته. كانت البداية

-بالطبع يا صديقي، وخطة بديلة وهي زواجي منها بموافقة هيدي وضربنا تهديد عمي بعرض الحائط

-لأن هيدي هي خالتها كما تظن ريم

-بالتأكيد. حتى جاء ليلة ١٩ فبراير، ذكرى عيد ميلاد ريم، جاءت دعوة من الدكتور أمجد بالاحتفال في فيلته، زوجته اختفت، ابنه مات، زوجة أبنه كرهت العائلة كلها، لم يبق في القصر الكبير غير الفراغ والشيطان والخمر، ويبدو أنه في حاجة إلى شيء يجلب إلى قلبه السعادة المفقودة، ولأن سوء الظن من حُسن الفطن، قفز إلى ذهني أنه كمين لاستعادة ريم إما إلى أحضانه أو أن يزوجها بآخر.

***

ليلة ١٩ فبراير

كان الليل قد حلّ علينا بهدوء وكأنه يطبع على جبين حي المعادي قبلة رومانسية ، جلست داخل سيارة قديمة (نصر 128) مع اثنين من الأصدقاء الأول يدعى محمد عبد الدايم والثاني ياسر مراد وسائق ماهر هو عصام الشهير بطرزان ، جلس عصام خلف عجلة القيادة متأهبًا مستعدًا ، كان في كامل تركيزه؛ لأن باقي تنفيذ الخطة قائما عليه وحده ، لا مجال للخطأ ، كنّا قد تدربنا جيدا على حمل السلاح وضرب النار في الصحراء أياما وأسابيع عديدة ، وأيضا على مراقبة الفيلا التي تقع في شارع بورسعيد حي المعادي، استمرت المراقبة أسابيع وشهور حتى وصلنا لساعة الصفر والتنفيذ بعد أن مزقنا مئات الأوراق وعدلنا عشرات الخطط ، قد تظن أن الأمر بسيطا ولكنه ليس كذلك ، صلينا المغرب وتحركنا

بالسيارة عدة دورات ثم عدنا وصلينا فرض العشاء في المسجد القريب من الفيلا في نفس الشارع ، وأخيرا هدأ كل شيء في انتظار رؤية أي سيارات تقف عند الفيلا، كنت قد عقدت العزم على أن أكون قاتلا أو مقتولا، أمجد لن يأخذ ريم منّي أبدًا، إما تخرج سالمة إلى بيت هيدي او.. لا داعي للإفراط في الخيال.

لم يقطع هدوء حي المعادي سوى نباح كلب من بعيد يصاحبه صوت صرصور الحقل القابع بين شجيرات الحديقة المجاورة ، لمحت من بعيد الحارس البدين ، لم اتبين من ملامحه غير شاربه الواضح من انعكاس بعض أضواء أعمدة الشارع ، كان يُدخن سيجارته ويلتفت يمينا ويسارا وكأنه في انتظار أوامر أو هو من سوف يعطي الأوامر ، مع آخر نفس لسيجارته وتلاشي الدخان من فمه وتطايره في الهواء تغير الطقس بشكل مفاجئ، هواء ، برد، ريح صرصر عاتيه، خرجت من السيارة على مهل ، تعمدت السير بين المناطق المظلمة الحالكة الظلام وتعاون معي ملابسي السوداء اللون، كنت خفيفا من كل شيء إلا المسدس الاسباني الذي وضعته خلف ظهري مستترا بالبالطو الواسع ، نظرت خلفي لأرى السيارة القديمة التي تم شرائها بعقد ابتدائي باسم وهمي مع دفع جزء كبير من المبلغ المتفق عليه .

كانت الفيلا كبيرة، بهو كبير في مدخلها، الحارس آوى إلى كهفه، دخلت إلى الفيلا بخطوات سريعة إلى الهدف الذي أريده، كنت أعلم أن هناك باب خلفي، من حسن القدر أنه كان مفتوحا، دخلت بخطوات أوسع، كنت أقفز فوق مدرجات السلالم مثل الفهد في انتظار فريسته للانقضاض عليها في التو واللحظة، رأيت ذو الحيثية كأنه رجل دبلوماسي في حلته الرسمية، جلس أمام ريم وهيدي، يتحدث معهم بكل اريحية، سمعت كلاما أثار حنقي وغضبي، مما أعطى فرصة ذهبية لتنفيذ الخطة.

انقطع التيار الكهربائي فجأة، وانطلقت رصاصتين ، صرخت على اثرها ريم صرخة مرعبة ،لا تعلم من أين خرجت تلك الرصاصات التي أُطلقت من الظلام أو هبطت من السماء ، ارتبكت لثواني معدودة ، تلك الثواني الفاصلة بين حياة إنسان وإنسان آخر وكأننا في فيلم أمريكي قديم كل منّا ارتدى ملابس رعاة البقر وشهرا مسدسيهما أمام الآخر ، واحدا سوف يلقى ربه في لحظات والآخر سيبتسم ثغره للفوز ، ولكن الأمر لم يكن كذلك، لم تكن الرصاصات من مسدسي ، أعدت الضغط على الزناد بلا جدوى ،عزمت على الهرب عندما وجدت أن هناك آخر يحاول قتل دكتور أمجد ، في لحظات خرجت من داخل الفيلا ، لمحت الحارس من بعيد ، وجدت في طريقي شيء لم أكن أعلم هل هي قطعة خشبية أم قضيب حديدي، تناولته وبسرعة وضعت باقي جنوني وبقايا غضبي على رأس الحارس المسكين ،هرولت وأنا استعد للقفز داخل السيارة وأمرت عصام بالهرب سريعا، هربنا في طرق ملتوية وشوارع أكثر بعدا عن المعادي حتى وصلنا لنقطة أخرى كانت فيها سيارتنا الأساسية التي تركناها في مكان بعيد عن الأعين والشبهات .

***

في اليوم التالي وفي نفس الوقت الذي كان هناك من يراقب أسراب السحاب بينما تقطع السماء بصبر، والقمر الذي يطالع العالم بنظره ساهمة من خلف السحاب كأنما يتستر بغلالة رقيقة ، وقفت في حالة رعب تجتاحني عندما شاهدت هيدي واقفة أمامي في البيت، في تلك اللحظة تمنيت لو أن الأرض انشقت إلى نصفين وابتلعتني ، وقبل أن تبدأ أن تقص ما حدث مع ريم، يتراءى لنا أن أشعة الشمس قد اختفت من عالمي فجأة ، سحابة غير مألوفة من الغبار الداكن تخيم على الشقة ، ظهرت هيدي وعيونها تُحدق فيّ ، وأخبرتني بمقتل عمي الطبيب الشهير، وأن ريم صُدمت بعد أن وجدته مقتولا أمام عيناها ومن ارتباكها ورعبها ، غابت عن الوعي وعادت إلى الدنيا بلا ذاكرة.

وبعد ثلاث سنوات وليلة 29 يناير عادت هيدي بنفس النظرة ونفس الموقف ولكن أخبرتني أن ريم عثرت على رزمة الأوراق المكتوبة بخط اليد، وقع الرعب في قلبي، فقد حفظ الزمن بعلاج ريم وعفاها من الضياع والورق من الاصفرار، وكأن الزمن كان أكثر احتراما مننا جميعا.

هيدي

"نحن في حاجة إلى مائة مصباحٍ صغيرٍ ولذلك سوف استأنف حكاية قصة ريم لكي يمكنك بالتدريج ان تشاركني تلك الاستنارة التي حلت بي"

يقول البعض إن كل شيء مقدّر ومحتوم، وإنك لا تستطيع تغيير أي شيء

أريد أن أغيَّر كل شيء

أريد أن أعود إلى البداية

عندما لم يكن أي شيء مُقدرًا بعد.

من فيلم

الحياة المقبلة

The Life Ahead

هل تقاومني؟ هل تحاول أن تحصن نفسك ضد هذا الاستبصار ؟، لا غرابة في ذلك، إنها خطوة واسعة فعلا لا يستطيع المرء أن يقوم بها فجأةً، ضباب العصور كثيف ولا يمكن أن تبدده نبضة ضوءٍ مفاجئةٍ. مهما كانت كبيرة

باتريك زوسكيند

قبل سنوات من ليلة 19فبراير

في تلك الحارة الصغيرة بدأت الحكاية ، كان يوما صباحه مشرق. والشمس ذهبية تخترق جوانب الطريق على استحياء، وتلقي بنورها على مدخل عمارة تتوسط البنايات القديمة. ولجت شقة تقع بالطابق الأرضي بابها مفتوح وعلى مدخلها لوحة مكتوب عليها "مكتب المهندس هشام إسماعيل

غانم" بحرص طرقت على الباب ، لم يكن أحد في استقبالي، رأيت صالة صغيرة بها قطع من الأثاث القديم جدا، على جدرانها بعض اللوحات الفنية العتيقة، ستار قماش منقوشة عليه أزهار وردية يفصل بين الصالة وبين ما اعتقدت أنه المطبخ أومعمل أومخزن ، باب خشبي بطلاء أصفر ، ويبدو أن الطلاء نفذت صلاحيته فنتأت قشوره ويسهل أن تزيلها بأناملك من مكانها، عندما انطفأت الإضاءة الداخلية فتح هذا الباب وتبيّن أنها دورة مياه ، خرج منها شاب طويل القامة ، ذو وسامة ملحوظة، وعيناه لامعتان، ولحيته معتنى بها جيدا، تسمر في مكانه عندما رآني، لا أعلم إن كان هذا الوجوم بسبب الخجل لخروجه من الحمام أم لأنه رأى امرأة جذابة شديدة الجمال وكأنها خرجت من فيلم بالألوان على جودة عالية، ابتسمت برقة مما جعله يتأسف ويعتذر لهذا الموقف، كان شديد التهذيب ثم قال:

تفضلي، المكتب هنا. وفتح باب الغرفة الوحيدة في المكان

بهدوء، دخلت مكتبه، مكتب خشبي بسيط بدون تكلف، لاب توب، جهاز طباعة، أوراق بيضاء فوق ستاند خاص بها، ملفات وضعت بترتيب خاص، لوحة فنية لجمال أوروبي مُعلقة على الحائط، وفي ركن مهمل رأيت طاولة صغيرة عليها الشاي والسكر والنسكافيه وغلاية المياه، ظل هشام في أوج تعجبه واندهاشه لرؤيتي، ثم تشجع وقال:

-اهلا وسهلا بحضرتك

-اهلا بك، في الحقيقة أعتذر عن وجود هنا بدون إذن مسبق

-لا داعي للاعتذار. اهلا بكم. تحت امرك

-في الواقع، أنا اخطط لعمل دار نشر جديدة، واريد مهندس كمبيوتر لتنسيق الأعمال الأدبية، متخصص في أغلفة الروايات والكتب، هل لديك فكرة عن برنامج الفوتوشوب؟

-بالطبع. أجاب بكل حماس

-أنا سألت كثيرا وتقصيت الحقائق وعلمت بأمرك من أحد الأصدقاء، الدائرة مغلقة جدا، ولكن على كل حال وصلنا. ابتسمت وهو بدوره رد الابتسامة

-وأزيدك من الشعر بيت، أنا أكتب أيضا

-معقول؟ ممتاز

-نعم. لي بعض المقالات والقصص القصيرة ورواية تحت الإنشاء

-هل من الممكن أن اقرأ ما لديك

بسرعة، انحنى جذعه تجاه اليمين، واخرج من درج مكتبه ملفا به بعض الورق، ناوله لي، وفتحته ووجدت في المقدمة، ورقة في وسطها (الفهرس) ثم على يمينها عناوين لخمسة وعشرين قصة قصيرة، ما زلت أذكر قصة (صاحب الحقيبة)، والتي في الحقيقة هي التي جذبتني إلى شخصيته.

(صاحب الحقيبة)

" ...ثم صرخ بكل قوة وأخبر والده أن الحقيبة التي بها الأموال و الأوراق الهامة قد نسيها في الحافلة ، خرج من البنك مسرعًا يحاول اللحاق به ، فما زال يراه على بُعد عدة أمتار، وأخيرا صعد على السُلم محاولاً اختراق الواقفين في طريقه ، وبصعوبة بالغة وصل إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه وتنفس الصعداء عندما وجد حقيبته كما هي ، فتحها واطمأن بأن كل شيء على ما يرام، ذهب للسائق يطلب منه النزول ولكنه رفض، حكى له قصته القصيرة جدا والموقف الذي وقع له ولكنه لم يستوعب كلامه ، استشاط غضبا مهددًا بإلقاء نفسه من الشباك إذا لم يفتح له الباب ، وأخيرًا

..استجاب السائق بكل ضيق و حنق وغضب و أوقف الحافلة وخرج صاحب الحقيبة ومعه لعنات السائق ، وبعد أن استقر على الأرض .. بصق على الحافلة مرددا أقذر كلمات السب واللعن. وكانت الصدمة في انتظاره".

ارتشف كاتب هذه السطور رشفة من فنجان القهوة التي أمامه، تاركا قلمه فوق أوراقه ليستريح قليلا من الكتابة، ونظر إلى الناس المحيطين به في المقهى التي تعوّد الجلوس فيها دائما، الوجوه تتشابه يوميا.لاجديد.مثل حالته تماما، فهو مثل كل صباح. يخرج هائما على وجهه سائرًا على قدميه؛ ليجلس في المقهى ومعه بعض الأوراق؛ ليكتب القصص والمقالات، ثم يفطر إفطار الشعب اليومي المكون من ساندويتشات فول وفلافل وبعدها يختمها بكوب من الشاي الثقيل يتبعها فنجان من القهوة بدون سكر مثل أيامه وبكثير من الدخان يُلملم أوراقه ليبدأ رحلة البحث عن وظيفة. و في هذا اليوم أراد أن يُكمل بعض صفحات القصة التي بين يديه ولكنه توقف فجأة عندما سمع صراخًا استرعى انتباه جميع من بالمقهى . . صراخ يأتي من بعيد ويزداد وضوحا كلما زادت الحافلة من سرعتها. رأى أشباح أناس كأنهم تتشاجرون داخل الحافلة. وأخيرا توقفت. وهبط منها شاب يحمل حقيبته ويصب جام غضبه على السائق وعلى جميع الركاب، اتسعت عينا الكاتب وأمسك بأصابعه أوراقه غير مصدقا ما يراه؛ إنه يرى ما سطرته يداه منذ قليل على الورق. معقول!!!!

انطلق سائق الحافلة سريعًا. مُخلفاً وراءه سحابه كثيفة من الغبار ممتزجا بدخان الحافلة، ووقف الشاب مبحلقا، لم تحتمله قدماه فخر على ركبتيه وسقطت الحقيبة بجواره. كان المشهد مروعًا بكل ما تحمله الكلمة من معاني، دماء تناثرت على الأرض. دماء فتيات صغيرات. لا يعرف أحدث ذلك بسبب اصطدام الحافلة بهن أم لسبب آخر؟ عمت الفوضى كل أرجاء الشارع وازداد الزحام، بركان من الغضب انفجر، وكان هناك من يصرخ طلبا للإسعاف، وهناك من يحاول جاهدا أن يُبقيهن على قيد الحياة.

عاد الكاتب لكرسيه في المقهى وأطلق لقلمه العنان:

" .... كان صاحب الحقيبة في حالة يُرثي لها، كأنه فقد عقله وظل يسأل كل فتاه تبكي بحرقة أمام جثة صديقتها: هل أنا السبب؟ لحظات جحيمية معدودة كان خلالها هائمًا على وجهه ويكرر السؤال أمام كل جثة ويعود ليسأل من جديد. نسي حقيبته مرة أخرى. ووقع الناس في حيرة تامة وتساءلوا فيما بينهم :(مع من يتحدث هذا الشاب؟) صاحب الحقيبة يعتقد أن هناك فتيات يبكين! والحقيقة أنها كانت أرواح عالقة لجثث الفتيات. كن يبكين على أنفسهن وكان هو الوحيد الذي يراهم.

هدأ الكاتب من انفعاله قليلا ليعرف ما الذي حدث بعد ذلك ولكنه قفز من فوق كرسيه متعجبا، فاغرا فاه، فقد رأى بعينه صاحب الحقيبة وهو يتحدث إلى الفراغ.

-جميل ما قرأت، تتمتع بخيال خصب وأسلوب سهل، وسرد ممتع، يبدو أننا سوف نتعاون سويا في عمل قادم.

-يشرفني ذلك. قال وهو مشرق الوجه وكأن أشعة الشمس تعامدت على وجهه فجأة

-اتفقنا. ولأنه ليس هناك مكتب حاليا، فإنني سأحضر في المرة القادمة معي أوراق العقود لتوقعها، ولو أحببت استشارة أي محامي، فذلك حقك.

-بل أشكر القدر أننا تقابلنا اليوم. هل من الممكن أن أسأل سؤالا خاصا، إذا سمحتِ لي.

-تفضل

-لم أعرف أسمك إلى الآن

-هادية فاروق

-تشرفت بمعرفتك

-ولكن هذا ليس سؤالا خاصا!

تردد قليلا ثم قال:

في الحقيقة، أنكِ تشبهين الفتاة التي أحبها كثيرا، اسمها ريم، ابنة عمي، تربينا سويا في هذا المنزل عندما كنّا صغارا وبعد وفاة والدي، انتقلت إلى بيت عمي، الدكتور أمجد طبيب النساء والتوليد، وبعدها انتقلت عائلتي إلى منزل آخر، استغللت هذا المكان لمشروعي الصغير كبداية لرحلة كفاحي، وعند رؤيتك، اضطرب قلبي لشدة الشبه بينكما.

ضحكت بصوت عال ثم قلت:

شوقتني لرؤيتها ما دمنا على هذه الدرجة من التشابه. سعيدة جدا بمعرفتك. لكن فكر في طريقة لأتعرف إليها..

هممت بالخروج من المكتب وحينها لاحظت وجود قصرية زرع بها نبتة صغيرة يابسة بجانب باب مُغلق وكأن هناك حاجز بين هذا المكتب وبين مكان آخر لم أفهم ماهيته، لم أنتبه لرؤيته عند دخولي، وددت أن أسأل المهندس هشام ولكني فضلّت إرجاء الأمر إلى وقت آخر.

***

مرّ أسبوع وزرت مرة أخرى هشام ، وهناك وجدت ريم ، وقفت مشدوهة عند رؤيتي، وكأن هشام تحدث عنّي بحماس بالغ مما ألهب فضولها لرؤيته شبيهتها، لقد كان التشابه بيننا ملحوظا، وربما هذا أذاب جبالا كبيرة بيننا

منذ أول لقاء، اوتلاقت الأرواح بسهولة ويسر. وكأنها اوركسترا تعزف بانسيابية و انسجام دون أي نشاز، كانت تمدح كثيرا هشام وأعماله الأدبية وخياله الخصب وأفكاره المتنوعة، أحببت هذا الحماس النابع من القلب ، وأعجبت بقصة الحب التي لم أكن أقرأ مثلها إلا في الروايات ولم أكن أشاهد مثلها إلا في الأفلام ، كنت شاهدة في الواقع وأمام عيني.. على مرأى ومسمع من العالم ، لم يكن حُبا يختبئ في الظلام ، كان حبا يعيش في وضح الشمس ورومانسية ليالي القمر ، صرنا صديقتين حقيقيتين ، وعلمت بمشاكلها مع زوجة عمها وعلاء ابن عمها وتحرشه اللفظي المشين بها وصمت عمها لهذا كله، علاء أساء إليها كثيرا، ودت لو تهرب من هذه الفيلا وتعود إلى عشها الصغير ، ولكنها تحلت بالصبر، لم يبق على التخرج من الجامعة إلا القليل وعندها ستنطلق، غير عابئة بالقيل والقال. مرت شهور وصارت العلاقة قوية بيننا نحن الثلاثة، كانت تلك الشهور قد أحدثت تغييرات كثيرة وسريعة ، تزوج علاء أما زوجة عمها فتفاقم مرضها بالوسواس القهري، مما كان له الأثر السلبي على حياة ريم.

علاء مدمن مخدرات، لا ينجب، وريم صادقت زوجته ، وحل اليوم الملعون الذي دبرا فيه كمينا لعلاء وزوجته وبدأت حياة ريم تتغير إلى الأبد.

***

وصلت ريم إلى البيت منهارة، عيون دمويتان، ، كانت الدماء تكاد تنفجر من شعيرات العين، الكحل صبغ لونه الكئيب حول العين، انسدل شعرها في إهمال، ارتمت في أحضاني دون أن أفهم ما يدور حولي عندما هدأت، وتمالكت نفسها وكفت عن البكاء، أخبرتني بزيارة هشام لعمها:

حكت لي ريم:

كان يريد الزواج منّي، لكنه رفض بشدة ، عنّفه وصغره أمام عيني وعيون الجميع، لم يصدق هشام ما رأى، اشتعل قلبه غضبا واحترق من داخله ، وأراد أن ينتقم ، كنّا نريدهم أن يبتعدوا عن حياتنا ، أن ينشغلوا بأنفسهم ، علاء شاب فاسد وملعون ومدمن مخدرات، وهذا الإدمان أثر على فرص انجابه. قبل الزواج، كان يدمن السهر مع أصدقاء السوء، وعندما يعود إلى الفيلا، أحيانا يقتحم غرفتي ، ليس من الباب ، وإنما من الشرفة، كأنني أسيرة.. مسجونة.. محاصرة من جميع الجهات. لم يصدقني أحد. هو ابنهم الوحيد المدلل ويفعل ما يحلو له ، رغباته أوامر ، أموال تجري من تحته كالأنهار ، تزوج فور تخرجه. ولِمَ لا يتزوج ؟ ، بالوساطة عمل في إحدى الشركات، اعطوه شقة مستقلة في نفس الفيلا ؛هكذا صرت أنا ومي زوجته صديقتان. اطمأنت إليّ، وصارت تحكي لي عن زوجها، صارحتني بكل وضوح:

بدايةً لا تسأليني لماذا اخترتك للبوح بما أحمل من هم وغم ، قد تجدين لي صورة وأنا ضاحكة رفقة زوجي ولكنها ليست سوى صورة لا تعبر عن الواقع ، زوجي يخونني مع أخرى ، باختصار ، اكتشفت أنه على علاقة مع زميلة قديمة له كان يحبها فترة الجامعة ، وهي مُطلقة ولديها طفل وهو يريد الزواج منها ، كل هذا اكتشفته في محادثات بينه وبينها في لحظة ما ، كنت خائفة منه منذ البداية ، منذ داية الزواج بعد أن اعترف بعقدته بسبب والده. حين وجد والده يوما على فراش السرير مع أخرى في غياب أمه، رأى وسمع واغتم ، ومن يومها وهو يُقدس أمه حد العبادة ، صار مريضا بها ، وكل حواراته حول أمه، خلافاتنا زادت في الآونة الأخيرة بسبب عدم الإنجاب، طلبت الطلاق وهربت إلى والدي ثم جاء واعتذر وجاءت أمه وقبلت جبيني وعدت ، وعادت ريما لعادتها القديمة ، قام بضربي عدة مرات ، ولا أعلم الآن ماذا أفعل ؟

في البداية ظننت أنها بالغت في ظنونها، فأنا أعيش معهم منذ سنوات ، عمي بالفعل حاد الطباع، له هيبه وكاريزما ولكنه ليس زير نساء ،ولم أر هنا في هذا البيت أي نوع من هذه الخلافات، حسبتها كذبة كذبها علاء ليبرر فعلته وسلوكه، وفي تلك الليلة أتى من الخارج وكاد أن يعتدي عليّ. نعم كان يريد جسدي.

ثار هشام ودقت طبول الحرب فخططنا لحيلة شيطانية ، لم أكن حينها أتخيل أبدا أن يتحول يوم معرفة مي بحملها من فرح وسرور إلى حريق ومأتم كبير، كانت النيران التي أحرقت قلب علاء هي نفسها النار التي أحرقت قلب والده .

***

١٩ يناير

في تلك الليلة، ليلة الاحتفال بذكرى عيد ميلاد ريم الكاذب، كانت هناك صديقات كما تتوهم ريم، وطبيبتان للعلاج النفسي والعصبي وكما كان يعلم هشام، فإنهما كانتا تراقبان تصرفات ريم، ولكن هشام لم يكن يعلم أنه هو الآخر مُراقب أيضا.

منذ اتهام ريم له بأنه قتل علاء وهو يشعر بضغط نفسي رهيب وأنه كان سببا في دمار أسرة صغيرة، بل عائلة كبيرة، صار غير متزنً. وتغيرت أحواله مع ريم، وخاصة في ليلة ١٩ فبراير، في تلك الليلة، عندما انطلقت الرصاصات من مسدس هشام.

"ولكن من يجد الطريق نحو الحقيقة سواءً بالمصادفة أم بالبحث الذي لا يهدأ لابد من أن يسير فيه إلى نهايته، لابد من أن يكمله حتى وإن كان ذلك لن يجلب له سلامًا ولا راحةً ولا جزاءً ولا شكورًا من أحد "

باتريك زوسكيند

ليلة شتوية، الهدوء يسري في غرفتي وأنا جالسة بين ظلام الغرفة وضياء القمر يحولنا إلى أشباح ليلية لا ملامح لها، اقتحمت خلوتي في رشاقة، وسرعان ما انسابت بين أركان تلك الغرفة موسيقى هادئة حانية؛ جعلت قلبي يقفز شجنا داخل صدري، أخبرتني بأنها الآن على استعداد أن أتقاسم معها حكايات ما بعد منتصف الليل، واشترطت أن يكون هناك ثالث بيننا.. إنه النعناع الدافئ، نعم. يكفي هذا المشروب، هيا بنا. إنني مستعدة للاستماع.

***

ليلة 19 فبراير

قام الدكتور أمجد باستدعاء ريم للاحتفال بذكرى ميلادها مثل كل عام، ولكن هذا العام يختلف عمّا سبق، ساورها القلق، وظن هشام السوء وهو يتساءل بحنق:

هل هناك احتفال بعد وفاة ابنه وهروب زوجته؟ هل جن عمي؟

اقترحت عليها أن أذهب مع ريم تلك الأمسية، وبالمرة أتحدث مع عمهما بشأنهما، ولكن ريم رفضت، وهدّأت من روع هشام وأخبرته أنه لن يحبسها، ساعة من الزمن تجلس معه ثم تعود، كانت ريم منذ حادث علاء وهي تعيش معي. ظن هشام أنه كمين، واتفقنا على أن تذهب ريم وحدها ثم تعود بعد ساعة، وإن لم تعد في الوقت المحدد فسوف نقوم بخطة بديلة.

ارتدت ريم ملابس شتوية تليق بالحفل، وفي نفس الوقت تليق باحترام موت الابن، ذهبت ولم يكن الطقس يبشر بأي خير، الريح بدت وكأنها غاضبة رافضة هذا اللقاء، والسماء اتفقت مع السحب بأن تتجمع لتُلقي بغضبها دفعة واحدة، قرأت التوتر والقلق على ملامح ريم وقد هناك خطة لم يعرف بها هشام.

ريم تحكي:

عبرت باب الفيلا وكأنني أعبر إلى مصير مجهول ، كنت خائفة من المواجهة بعد هروب دام عدة أشهر، بعد أن عصيت أوامر عمي وخطبت إلى هشام.

على اليمين ألقيت التحية على (عم صالح) ، الحارس الطيب ، الذي رد التحية بوجه بشوش فاطمأن قلبي قليلا، وكنت كمن يقتحم القلاع المحصنة. دخلت شاهرة سلاحي الذي لم يكن سوى عقلي اليقظ، وتلك كانت نصيحة هيدي إلي. أن ازيح قلبي جانبا. وفي بهو القصر الكبير وجدت الأضواء مبهرة، وكأنني اول مرة أرى هذا النجف الضخم ذو الإنارة العالية ، لم يكن هناك أحد، جلست على أول كرسي أجده، أخترت الكرسي الذي يقع خلف السلالم وأمامه باب الفيلا. أشارت ساعة الحائط الفخمة إلى أن التوقيت هو الثامنة ، القلب يرتجف بعنف كلما سمعت صوت أقدام تقترب من خلفي، أقدام الرجل المهيب ، تنزل ببطء على درجات السلم، أغمضت عيناي وقرأت آية الكرسي، كأنني سوف أواجه ملك الموت وليس عمي، انقطعت أصوات اقدامه فجأة، فتحت عيني لأجده أمامي مباشرة، انتفضت في رعب عندما رأيته يمد ذراعه ليُسلم عليّ، ، ودون أن أدري، وبلا وعي، وجدت نفسي بين أحضانه، كان يبكي ، أول مرة أحسه إنسانا، لم أتحمل ، بكيت لبكائه بشدة، كلّ منّا احتاج إلى هذا الضعف بعد جمود طويل، ذابت جبال جليدية ، رحمة من الله ، تركني فجأة كما احتضنني فجأة، ورأيت الرجل الذي اعرفه، حلة رسمية كامله ، نظارات ذهبية، عينان حادتان، وإن كان بها بعض الحزن الدفين ، جلس وبدون مقدمات تكلم ، كنت أظن أنه سيسألني على احوالي وأين أسكن وكيف أعيش، لم يحدث، وجدته يسافر عبر الزمن، إلى زمن بعيد جدا ، نظرت إلى تلك المدفأة، كان الحطب يحترق في هدوء عندها شرد وقال::

"منذ إحدى وعشرين عاما، كان هناك رجل طويل ونحيف، صاحب عينين خبيثتين غائرتين ويمتلك ابتسامة لزجة تدل على أنه منافق من الطراز السوبر، يعمل ممرضا لدى طبيب شاب تخصص " نساء وتوليد "، لازال هذا الطبيب حديث التخرج بسنوات معدودة. في أحد الأيام حدثت مشاجرة قوية بينه وبين صيدلي -لم تكن الهواتف المحمولة في ذلك الوقت قد انتشرت -وبسبب نقص بعض المستلزمات الطبية التي يريدها، فهو دائما يشتري كميات عجيبة من المحاليل الطبية المتنوعة والامبولات الخاصة بعمليات الولادة والسرنجات والكانيولا... الخ.

كميات تصلح لعمليات وليست لعملية ولادة واحدة، مما أثار فضول الصيدلي الذي تساءل عن سر هذه العيادة التي لا تعمل إلا مرتين فقط في الأسبوع. ولماذا كل هذه الكميات؟ "

انتبهت وكلي آذان صاغية، لم يقطع شرودي سوى الحطب الذي يحترق، وفي غياهبي كانت الأسرار تتوارى.

تابع:

لم تكن هذه عيادة نساء وتوليد بالمعنى الحرفي ، رسميًا هذه العيادة تعمل مرتين في الأسبوع ، ولكنها في باقي الأيام تصبح عيادة لإعادة الحياة للفتيات اللاتي فقدن غشاءهن ،نعم عمليات ترقيع غشاء البكارة. طبيبنا مشهور - رغم صغر سنه - وله عيادة أخرى في الإسكندرية، وله أيضا نفوذ بسبب إخوته وعائلته ،لديه هوس جنسي بالممرضات والمومسات ، وكانت تلك هي البداية، يخطئ ويصحح خطأه بإجراء عمليات الترقيع ، أصبح مشهورا بما يقوم به. ويبدو أنه كان مسنودا من رجال لهم نفوذ وكلمه، فهم أيضا يخطئون وهو يصحح أخطاءهم، لذلك لم يُتهم يوما بهذه

الجريمة ، وكانت له فلسفة عجيبة فهو يستر على الغافلات وينقدهن من الفضائح

صوت فرقعة عالية في الحطب وكأنه يستمتع ويحترق في نفس الوقت.. وانبعت صوته الهادئ:

"كان له أخ يصغره أكثر بشاعة منه، لا يستفيق أبدا من الخمر ولا النساء، ومرة أخطأ أخوه الغائب عن الدنيا مع ممرضة تعمل في نفس المستشفى الذي يعمل فيه أخوه، ومع الأسف، حملت بين أحشائها جنينا، رق قلبها لوليدها البكر فرفضت التخلي عنه، ولم يكن لديه حيله فتزوجها، وبعد أشهر، أنجبت طفلة

وبالرغم من برودة الجو إلا أنني شعرت بصداع مفاجئ، وكانت الدماء تضيق بها الأوردة، ولم يقطع الهدوء سوى فرقعات الحطب الذي ازداد اشتعالا وغضبا.

مات أخوه السكير في وقت غير مناسب. وتكفل أخ ثالث بالطفلة فانتقلت لتعيش معه، وكبرت الطفلة بين الرعاع، في طبقة متوسطة، في حارة ضيقة، يتنفس أناسها التراب والتلوث. وقال القدر كلمته بعد سنوات حين مات معيلها..لكنه لم يكن المتكفل الوحيد بها ،فهناك شخص آخر كان يعد بمتابة مصرف بنكي لهذه الشابة الجميلة، التي قدر لها أن تصعد من القاع إلى القمة، من التلوث إلى النقاء ، من الطين إلى الأريج، وستأتي بعد ذلك ، عينة بشرية من هذا القاع الملوث لتطلب تلك الزهرة التي تعيش في قمة الجبل. إنه في الواقع لم يكن يريد غير الشهرة والفلوس والنفود"

تجري الدموع على وجنتاي بلا توقف حتى أنني لم أكن أستطيع رؤية ما أمامي، إذن أنا ابنة الخطيئة ؟،شعرت ببرودة تنساب في اطرافي لا تتناسب أبدا مع الصداع الذي اجتاح رأسي ولا مع تسارع ضربات قلبي..

وواصل عمي وكأنه يلقي قنبلة سيختلط انفجارها مع غضب الحطب المحترق وكأنه يكشر عن أنيابه.

كل ما سمعتيه ما هو إلا جزء من الحقيقة، ولكن الحقيقة التي لم يعلمها أحد ولم يعرفها ولن يعرفها سواكِ، هي أنكِ ابنتي.

ماذا؟ ابنتك؟ توقف كل شيء من حولي فجأة. خفت فرقعة الحطب، ووقع قلبي بين قدمي، وثقل جسدي علي وشحب وجهي وفرت الدماء منه.

" تلك هي الحقيقة، انتِ نتيجة خطأ ارتكبته بعد زواجي بعدة سنوات، وأمك أصرت على وجودك، وأخي تحمل عبء خطئي، تواطأ معي، رضخت والدتك لهذا التزوير؛ طالما أنكِ سوف تنتمين إلى العائلة، وافقت بشرط أن تبتعد عنكِ وان تنساكِ طوال حياتها، وقد فعلت.

في تلك اللحظة انقطع التيار الكهربائي بشكل مفاجئ، تزامن ذلك مع صوت رعد يصم الآذان، ورصاصات انطلقت من حيث لا اعلم، ارتبكت وتسمرت في مكاني، خشيت أن أقوم فتصيبني رصاصة طائشة لا تعرف هدفها، شل تفكيري وفي لحظات، اسودت الدنيا أمام عيني، وكما انقطع التيار الكهربائي فجأة عاد فجأة، لمحت في المرايا الكبيرة المعلقة في بهو

القصر انعكاسا لشخص أعرفه. أعرفه جيدا، كان يفر هاربا وفي يده مسدس مشهر تجاه أبي.

***

كنت جالسة في سيارة قريبة من الفيلا، لمحت من بعيد هشام يجري بعد أن ضرب الحارس على رأسه، مرة أخرى سمعت رصاصات تنطلق، لم أدر ما أفعل؟ هل أهرب أم أنزل لأبحث عن ريم ؟. حمدت ربي عندما وجدتها قادمة إليّ وهي تمشي ببطء شديد، كانت مذهولة ومنهارة، ملابسها ملطخة بالدماء، رفعت يداها أمام وجهها وأمامي،تلوثت كفاها بالدماء، لم أفهم ما الذي حدث، فتحت باب السيارة وأدخلتها بقوة، كانت شاحبة كالموتى، شاخصا بصرها نحو المجهول، مفتوحة العينين في ذبول، نظرت إليّ كأنها لا تعرفني، قالت جملة واحدة وغابت بعدها عن الوعي وعن الدنيا كلها : قُتل أبي.

***

فقدت ريم ذاكرتها، لم تعد تتذكر أي شيء، أخبرنا الأطباء أنها تعرضت لصدمة نفسية عنيفة، عندها قابلت هشام مرة أخرى، وأنا أستشيط غضبا، وددت لو أقتله هو الآخر، ذهبت إلى مكتبه، واجهته.

أنا أعلم أنك كنت ليلة الحادث في فيلا د. أمجد، رأيتك ليلتها بعد إطلاق النار وضربت الحارس على رأسه وفررت في سيارة فيات صغيرة أنت ومن معك، اسمع، ريم فقدت الذاكرة بعد أن دخلت في غيبوبة، وأخبرتني بوفاة عمك الذي هو أبوها، لا يصدمنك الأمر، فليس هناك وقت للشرح، الآن عليك أن تساعدني في إعادة الذاكرة لها وإلا بلغت الشرطة عنك، وإياك أن تخطو ناحية الفيلا مرة أخرى.

لم ينبس ببنت شفة. فغر فاه غير مصدق لما حدث، وتداخلت كل الخطوط لديه ولم يستطع أن يرد، كان عليه تنفيذ الأوامر فقط، هو الآن خالد وانا الخالة هيدي.

مضى عامان دون أي نتيجة تُذكر، فشلنا مرتين، وقالت لنا إحدى الطبيبات أن نغير موعد الاحتفال بعيد الميلاد، لأنه من الواضح أن هذا اليوم حُفر في عقلها الباطن وأنها حين يأتي هذا التاريخ تنتكس بشكل لا إرادي، وقررنا تقديم الحفل شهرا كاملا أي 19 يناير. وقد كان.

بعد عدة أيام وجدت المخطوطات التي كتبتها بيدها، وجدتها في صندوق ورقي، كنت قد سرقته من هشام في أحد الأيام، وجاءتني تصرخ في رعب:

"هيدي، هذه القصص القصيرة مكتوبة بخط يدي، نفس القصص القصيرة المطبوعة ورقيا وعليها إسم روان أحمد، هيدي، أنا أعلم من قتل عمي. إنه هشام. ليس كما هو مكتوب في القصص. لقد تذكرت الآن. "

كانت تبكي بحرقة، وارتمت بين أحضاني وهي تكرر:

لقد تذكرت. كل شيء.

كانت الصدمات المتوالية مثل دقات على مسرح حياتي وبعدها ارتفع الستار، وعيون الناس تراقب كل كبيرة وصغيرة. فوجدت نفسي تصيبها الهذيان، فقد تحملت فوق طاقتها، ولكن. لنكف عن تقديم مفاهيم زائفة أكثر من ذلك.

على الرغم من كل الخطط والاستعدادات ووضع كل شخصية في مكانها ، إلا أن القدر في معظم الأحيان يقول كلمة أخرى، تخرجت من كلية التمريض، وعملت ممرضة بإحدى المستشفيات ، كانوا يطلقون عليّ

الممرضة الفاتنة، وقع في حبي الكثير، ومن أراد أن يُسقطني في شباكه أكثر، كمائن كثيرة نُصبت على حافة الشهوات والمجون، ولكن القلب اختار واحد فقط .اختار الدكتور أمجد غانم، رغم أنه كان متزوجًا ولديه طفل إلا أنه شعر بأنه فوق الجميع، علمت بأنه يقوم بعدة عمليات مشبوهة في عيادة ما في القاهرة ؛ كانت عيادته الرئيسية في الإسكندرية ، انجذب إليّ، تمنيت ولو الزواج يكون عرفيًا، المهم أن ابق معه ولو يوم واحد في الأسبوع، اتفقنا على سهرة خاصة، كانت خاصة جدا،هو واخيه وبعض الرجال من كبار المحافظة والعاهرات، شعرت بالحزن عندما رضيت أن الانحدار إلى هذا المستوى من الحياة، لم أشعر بحالي إلا في ثاني يوم. الخمر والدخان الأبيض والأزرق وأقراص الهلوسة جعلتنا جميعا في حالة يُرثى لها ، كانوا جميعا مغيبين إلا أمجد. هو الوحيد الذي كان في كامل وعيه بما يدور ولم يندمج إلا في حدود.

إنه شيطان خبيث.. وحدث ما حدث . وحمل رحمي نطفة أمجد. علمت بالحمل وأخبرته. صرخ وهدد وتوعد. لم يخفني صراخه بل على النقيض من ذلك تماما، فقد تحولت إلى لبؤة شرسة تدافع عن حقوقها حتى لو كانت حقوقا غير شرعية ، أخبرته أنني سوف أفضحه لو فكر يوما بأذيتي، لا تهمني حياتي ولا موتي ولا الدنيا كلها، جبروت امرأة خرج من العدم ، لو أن هناك من صور لهذه المشاهد لما صدقت أنني هذه السيدة التي تقف أمام طوفان الطغيان.

أذعن أمجد وفكر في فكرة شيطانية لم تخطر على بال أحد؛ أن أتزوج أخاه الأصغر!! ماذا ؟ وكان الاتفاق أن يتم الطلاق بعد الولادة، وافقت على الفور ولا أعلم لماذا. أخوه أيضا وافق دون إبداء أي اعتراض ، أي شيطان هذا الذي يتحكم في مصائر الخلق بخيوط غير مرئية! ، لكن القدر يقول كلمته مرة أخرى وتعلو كلمته فوق كلمة البشر، ويموت أحمد غانم، كنت أعتقد أنها الراحة بعد عذاب ، ولكن ما حدث كان أبشع، بعد الولادة أخذ أمجد الطفلة ، أنتزع ريم من أحضاني، تصرف خسيس من شيطان رجيم ، هل رق قلبه لها عندما رآها ؟. الأغرب هو تصرفي، فقد أعطيتها

له بمحض إرادتي ، من أين لي بمصاريف الطفلة ووالدها من الأثرياء. قبلت أن أكتفي برؤيتها من بعيد وأن أضحي باحتضانها عن قرب. كنت اتابع القدر وهو ينسج خيوطا أخرى وعاشت ريم في بيئة إسماعيل ، الرجل المتدين ، ذو القلب الرقيق، كان ميسور الحال، ابتعد عن أخوته وعاش بين البسطاء، رضي بالقليل ، وربى ابنتي في هدوء.ولكن إسماعيل مات فتحمل هشام مسئولية البيت من بعده، وانتقلت ريم إلى عالم آخر خشيت عليها منه. كنت دائمة المراقبة لها من بعيد حتى علمت بعلاقة الحب بينها وبين هشام. تقصيت أمره وتحريت عنه وأرسلت له هادية فاروق أو هيدي وبدأت الخطة.

***

شخصية هشام شخصية مضطربة ، استنتجت من خلال ما قرأت من قصته (صاحب الحقيبة) بأنه مريض بالوهم، مرض الوهم هو أحد المشاكل الصحية النفسية الخطيرة الذي يعرف بالذهان ، والذي يتمثل بعدم قدرة الفرد على التمييز بين الواقع وما يتخيله، حيث يعاني المصابون بالوهم من أفكار واعتقادات يصرون عليها رغم أنها غير صحيحة أو غير واقعية.

راقبته هيدي طويلا وتقابلا عدة مرات وقرأت شخصيته جيدا قبل أن تقابل ريم، اتفقت معه على أن لا يخبرها أنها صاحبة دور نشر ، وأنها شخصية مشهورة وتعرف عليها من خلال صديق يعمل بإحدى الفضائيات . وكان اختبارا أوليا ونجح فيه بامتياز.

وبعد أيام قابلت هيدي ريم ، وصارتا صديقتين بعد وقت وجيز، واخبرتها بتصرفات علاء الشاذة، وخطط هشام للانتقام منه ، وقال القدر مرة أخرى كلمته، فمات علاء واتخذت ريم مسارًا نفسيا جديدا. كان هشام يزرع في عقلها الباطن أن عائلتها تكرهها. يمرر ذلك عبر قصص قصيرة ، كتبتها بخط يدها وكان الشيطان هشام يُملي عليها وهي تكتب.، كانت فرحة بقصصه وهي تشاركه لحظات مجده. وخفية عنه كانت تطبع النسخ

الأصلية ، وتذهب بها إلى هيدي كطفلة صغيرة، لا تخفي سعادتها بلعبة العروس الجديدة ، بدأت الأمور تأخذ شكل جديدا عليها. ومن خلال القصص رأت أن زوجة عمها ساحرة ،ومريضة بالوسواس القهري وحكت لها قصة الممرضة المجنونة والآثار وان قصدت بها في الواقع ام ريم ، إلى أن وصلت هيدي إلى قصة (الملاك القاتل) ، هذا الوغد يريد أن يجعل ريم هي القاتلة، وكان لابد من التدخل.

***

اقترحت هيدي على هشام بأن يذهب إلى بيت عمه في سرية تامة، يستأجر سيارة فيات ومعه عدد من الأصدقاء، يحمل مسدس للتهديد فقط، لا يستخدمه، ملأت رأسه بأن ريم سوف تُحاصر من قِبل عمها وقد يحبسها لديه في الفيلا، كان الهدف هو أن تستفيق ريم من شرودها المجنون بهشام، وفي نفس الوقت هاتفت المجنونة زوجة عمها بأن تتواجد خفية في الفيلا، ولكنه القدر.

بعد أن استرجعت ريم ذاكرتها قالت:

عاد التيار الكهربائي مرة أخرى إلى الفيلا، ورأيت من كنت أعتقده عمي غارقا في دمائه، قمت من مكاني بصعوبة، لم تتحملني قدماي وزحفت حتى وصلت إليه، بلا وعي، احتضنته، كانت تلك هي المرة الأولى التي أقول فيها: أبي

رأيت دموعه تنساب من عينيه وهو يقول: سامحيني

ثم سقط من فوق كرسيه على الأرض وأنا أصرخ، حينها ظهرت الشيطانة زوجته وهي ترفع صوتها عاليا: قتلت زوجي؟غير معقول؟ قتلت من فتح لك بيته؟ قاتله. قاااتله.

هربت من أمامها، هربت من الموت، هربت من الدنيا كلها، ووجدت نفسي أمام هيدي أظلمت الدنيا ووقعت في براثن الغيب والظلام.

***

حاول هشام التكفير عن ذنبه، والدفاع عن حبه أمام ريم، كان يعلم أن ريم إذا تذكرت الواقعة وعادت إليها ذاكرتها ستكون تلك نهايته وإعلان وفاته، حاول العبث بها ولكنني كنت له بالمرصاد.

واجهته هيدي بعد أن عادت إلى ريم ذاكرتها وهددته وأنصاع إلى الأوامر كالجندي في الحرب، وفي يوم ١٩ فبراير وبعد أن هدأت الأمور، أرسل لي ملفا ضخما بداخله بعض الأوراق وظرف أبيض بداخله رسالة كتب فيها:

منذ اليوم الأول الذي التقينا فيه وحلم حياتي أن أنشر رواية. رواية من نوع خاص، ولم تكن هذه الرواية غير روايتنا أنا وريم، ستجدينها في هذا الملف من أول فصل إلى آخر فصل، أرجو أن تعديني بنشرها حال قراءتها وستعرفين بعد قراءتها أنني لن أنتظر الرد منك.

محبتي العميقة لريم وهيدي

***

قبل ليلة ١٩ فبراير

١ فبراير:

شقة مظلمة رطبة، عطنه، باردة ،رائحة التراب تنبعث منها وتخترق أنفك رغما عنك ،أصابع تتحس الجدار وتتخبط بحثا عن زر الإضاءة، تتحسس برفق حتى وجده، ولكن ما حدث لحظتها ان جسده تكهرب بسبب تماس بسيط بالسلك العاري. أضاء الغرفة ولم يكن يتخيل أنه سيجدها بهذا السوء، فقد زحف العفن على الجدران من كل النواحي، سقف طلاؤه متقادم ومتهالك. فوضى منظمة فوق بلاط الشقة المهشم في كثير من المواضع، تعجب لرؤية عجلة سيارة شبه محترقة.. وكانت هناك قايا دولاب مُهمل يشغل حيّزا من المكان وقطع محطمة للعب الأطفال، مكانها الحقيقي هو سلة المهملات وأوراق كثيرة وأكياس بلاستيك مبعثرة في كل اتجاه، وقف للحظة وتساءل كيف يمكنه العيش في هذه الخرابة ؟ شقة في الدور الأرضي مكونة من غرفة وصالة وحمام ومطبخ يكاد يكون هذا الأخير محترقا بالكامل فالآثار السوداء على الحائط وفي كل ركن، تأكد أنها بقايا دخان نتيجة لحريق ما مجهول المصدر، كان يسير بحذر فوق هذه المخلفات، وتأكد أن الشقة تحتاج إلى ترتيب وإصلاح وعليه أن يؤدب نفسه أولا فهو السبب في حدوث كل هذا، جلس فوق قطعة حجر كالتي تُستخدم في البناء، لا يعرف أساسا لماذا هي موجود هناك؟ تأمل مكب الزبالة وما يحيطه من كل اتجاه ورأى أنها صورة واقعية مما يحمله في داخله، فوضى عارمة،

"لا بأس لنر باقي البيت والغرف الأخرى"

هكذا قال معزيا نفسه وهو يقوم من مكانه محاولا تفادي المُخلفات الموجودة أمامه، فتح الباب الداخلي ليجد صالة متوسطة المساحة وشجيرة صغيرة يابسة ماتت من فرط الإهمال، تقبع في إحدى زوايا الصالة، تصميم الشقة غريب، فقد كانت تتفرع عنها شقة أخرى أكبر منها وكأنها لدت من رحمها

واستقلت عنها، دخل الصالة وأضاء مصباحها، ووجد ثلاث غرف بثلاثة أبواب مغلقة، وحمام أوسع ومطبخ أكبر مما يوجد في الشقة الأولى، ونبتت بلامات استفهام كثيرة في رأسه عندما وجدها أكثر نظافة وتنظيما.

١٠ فبراير:

تم إخلاء البيت من الفوضى العارمة التي كانت تجتاحه. أحضر اثاثه البسيط وأصلح العيوب الباقية وتأمل وقارن بين ما كانت عليه من قبل وما أصبحت عليه الآن، تنفس الصعداء واستراح أخيرا، وظل سؤال غامض يلح عليه وهو يقف في منتصف الصالة عاقدًا ذراعيه امام صدره: لماذا ترك صاحب هذا البيت بيته؟ ولماذا هرب المستأجر السابق مخلفا وراءه كل هذه الفوضى؟ هذا ما أخبره به أحد الجيران. هز كتفيه بلا مبالاة، فهو سوف يعيش وحيدًا على أية حال بعد انفصاله عن حبيبته مؤخرًا.

١١ فبراير:

"سمع المستأجر الجديد صوت بكاء لطفل رضيع، بكاء متقطع ، بكاء يعقبه صمت ثم يتكررصوت البكاء ويتردد صداه، ازداد تعجبه عندما أنصت بعناية ليعرف مصدر الصوت ، خرج من غرفته و سار في الصالة الصغيرة، البكاء يتضح معالمه ويزداد وضوحا كلما خطا تجاه الباب الداخلي، أرهف أذنه وشنف السمع ، البكاء يزداد أكثر وبلا انقطاع، ارتجف قلبه من الهلع، فتح الباب الداخلي بشكل مباغت...

لا شيء غير الصمت الذي يخيم على البيت ، أضاء مصباح الصالة الأخرى ووجد كل شيء هادئا، وقبل أن يُعيد كرته ويعود الى مخدعه، لاحظ عودة الحياة للشجيرة التي كانت يابسة ! ظن أن أحدهم قد استبدل القديمة بالجديدة دون أن ينتبه، ولكن بعد أن أطال التأمل، وجد انها نفس الشجرة. أثار الأمر استغرابه ولكنه أغلق الباب وأثناء عودته فزع لعودة صراخ الطفل الذي بكى بحدة مرة أخرى ".

استيقظ من نومه في حالة هلع وصدره يعلو ويهبط وهو يشكو من عدم انتظام أنفاسه ، أضاء جواله ليعرف الساعة فكانت تشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل أعاد الجوال إلى مكانه وحاول القيام من سريره ليفرغ ما في مثانته ويبل حنجرته الجافه بقليل من الماء، قام متثاقلاً وهو يشعر برأسه تكاد تنفجر من الصداع الذي سببه بكاء الرضيع في الكابوس ، وصل أخيرا إلي الحمام وبعدها انحرف إلي المطبخ وفتح ثلاجته وأخرج زجاجة المياه وهم بشرب الماء منها مرة واحدة، عاد لسماع صوت بكاء الرضيع مرة أخرى لم يكن حلما او كابوسا،كان حقيقة أعاد زجاجة المياه إلى مكانها، وسار وجسده يرتعش من الخوف، أصاخ السمع مثلما فعل في الحلم ، موسيقى مخيفة تدور في رأسه، وفتح الباب فجأة، ليسكت بكاء الطفل، وتصمت الموسيقى بدورها، هدأ قليلا والتقط بعضا من أنفاسه مما بقي حبيس صدره. أضاء مصباح الغرفة، فوجد كل شيء على ما يرام، حتى تلك الشجرة الصغيرة كانت يابسة كما هي ، الغريب انها كانت بجوار الغرفة الأولى.

١٥ فبراير:

لم يعد يتحمل ما يحدث له كل ليله. نفس السيناريو يتكرر، الكابوس نفسه فيستيقظ ويصبح الأمر حقيقة ثم يفتح الباب الداخلي وينقطع البكاء الحاد. لقد قرر هذه المرة اقتحام المجهول،

كانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة صباحًا. فتح باب الغرفة الأولى ، ظن في بادئ الأمر أنها نظيفة وخالية من أي فوضى ، ولكن تسرب كل ذلك من مخيلته عندما أشعل أضاء الغرفة.. فغر فاه واتسعت حدقتي عينيه وهو يري بقايا ألعاب أطفال، وكأن هناك من فرز تلك الألعاب إلي نصفين ، النصف الأول يلزم ازالته إلى مقابر المهملات، والنصف الآخر بين يديه ، لم يفهم السر وما علاقة كل هذا بالبكاء الحاد الذي يسمعه ، اتخذ قرارًا بتنظيف المكان. إنها لعنة غير مفهومة!! هل كان هنا طفل يلعب يوما في هذه الحجرة ومات أو ..أو. إن دماغه ستنفجر ألكثرة مشاهدته أفلام الرعب تلونت خواطره بالأسود.

بحث عن كيس كبير لوضع بقايا الألعاب المتهالكة، فلم يجد غير صندوق كبير من الكرتون المقوى، فتحه ليتأكد من أنه فارغ ولكنه لم يكن كذلك، ففي قاعه ورقة صغيرة مطوية كأنها رسالة، التقطها وفتحها ثم شهق من الرعب، عندما مرّت عيناه فوق سطورها. ورقة مجهولة المصدر، يسري الغموض بين كلماتها، بسرعه أعاد طيها واحتفظ بها داخل جيبه، وبلا وعي وأنفاسه تتسابق بين الشهيق والزفير جمع بقايا الألعاب في ذلك الصندوق الكرتوني وحمله بين يديه ووضعه في الصالة الصغرى، عاد مرة أخرى إلى تلك الغرفة وأطفأ مصباحها واغلق بابها بعنف وضيق ورجع إلى غرفته لينال قسطا من الراحة في محاولة لنسيان ما تحمله الورقة الغامضة.

١٦ فبراير:

قام متثاقلا من فراشه بعد أن تيقظ إلى أنه أخلف موعده مع العمل، فقد كان في حالة نهم للنوم بعد ما ارهقت أعصابه في الأيام الاخيرة، سار حافيا

ووضع كفه أمام فمه لمنع التثاؤب. خرج من غرفته ووقف متسمرا أمام ما رأته عيناه، بقايا الألعاب التي جمعها في الصندوق ليلة الأمس. لقد بُعثرت في كل ركن من أركان الصالة، كيف ومتى ومن نقلها؟ ؟؟ لا إجابة.

عقد حاجبيه في غضب وسار منفعلا إلى الحمام وبعدها توجه للمطبخ لإعداد وجبة غدائه. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة عصرا وهو يريد استنشاق قليل من الحرية خارج هذا البيت الملعون ، شرد متذكرا الرسالة التي وجدها أمس وحاول فهم ما حدث للألعاب ، أفاق من شروده على حريق في المقلاة، فقد تشابك الزيت الساخن مع شرر بسيط من عين البوتاجاز، بسرعه أطفأ البوتاجاز واغلق أنبوبة الغاز ووضع المقلاة المشتعلة في الحوض وفتح الصنبور ليفعل تفاعل الماء والمقلاة نتيجته. تصاعد دخان أبيض ما لبث أن تبخر في ثوان معدودة ، انتظمت دقات قلبه بعدها ولكنه رأى شيئا غريبا على الحائط.. إنها آثار دخان أسود.. تماما كما سبق ورأى في الكابوس!

عاد من الخارج بعد الحادية عشر مساءًا. تأمل الفوضى الخلّاقة التي حدثت في الصالة. شعر بالأسى بعد الحريق الذي حدث عصر اليوم، دلف إلى غرفته. غير ملابسه بملابس النوم وتمنى أن ينعم بليلة هادئة.

صرير مزعج صدر نتيجة احتكاك عجلات سيارة بسطح الإسفلت بعد فشل قائدها في السيطرة على فراملها مما أدى إلى ارتطام عنيف بالجدار الخارجي لإحدى العمارات وبعد أن عبر الرصيف الخاص بالمشاة، صوت أنين مكتوم يطلب النجدة والإسعاف.

استيقظ بطلنا على هذا الحدث، قام مسرعا وفتح النافذة وتدلي الجزء العلوي من بدنه محاولا رؤية أين وقع هذا الحادث، ولكنه لم يجد شيئا. كان الشارع هادئا ولا أثر لأي محاولة ارتطام، انتبه إلى أن الصوت يأتي من الداخل، أرهف السمع بعد إحكام غلق النافذة، نفس الأصوات المخيفة تتكرر..أصوات احتكاك العجلات..أزيز فرامل..ارتطام عنيف..طلب النجدة.

جف ريقه وارتعدت فرائصه عندما خرج من غرفته وكانت الأصوات تتضح أكثر فأكثر.. وقف عند الباب الداخلي الذي يفصل بين الشقتين، وفتحه فجأة، ليصمت كل شيء ، حُبيبات عرق كثيفة تسيل على جبينه. توترت أعصابه، لم يقو على التحمل أكثر من ذلك، أغلق الباب، فعادت الأصوات مرة أخرى، هوى قلبه بين ضلوعه وسقط في جوفه عندما سمع صوتا خافتا يقول له: أنا في الغرفة الثانية..النجدة..اااااااااه

بغضب شديد وبعنف من تلفت أعصابه فتح الباب الداخلي، وكالعادة حل صمت مطبق. توقف لبرهة من الوقت يسأل نفسه:

لماذا لم يفتح هذه الغرف من قبل؟ لماذا لم يدفعه الفضول من البداية إلى فتحها؟ ما الذي منعه؟

ولماذا. لماذا هذه الشجرة اليابسة عند باب الغرفة الثانية؟

من ينقلها ويتلاعب بأعصابه؟

أيقن في قرارة نفسه أنها شقة ملعونة وقرر مواجهة الخوف، سار نحو الغرفة الثانية وفتحها، وأضاءها ليجد الفوضى مرة أخرى، قطعة من الحجر، عجلة سيارة قديمة ممزقة، كثير من الأوراق، وأكياس بلاستيكية مهملة.

عقد حاجبيه في تركيز شديد وتذكر أنها نفس الفوضى التي رآها منذ أن وطئت قدماه الشقة، للحظات فهم ما يدور حوله، إنه يعيد نفس الأمر.

الآن فقط استوعب ما حدث، المستأجر السابق حدث له ما تكرر معه من قبل، وفر هاربا، أما هو فلن يفر، ولن يهرب، سيواجه الخوف، أخرج محتويات الغرفة إلى صالة الشقة الصغرى، وأثناء نقله لهذه النفايات، وجد ظرفا مثل الظرف السابق، فتحه وتناول الرسالة، قرأها سريعا وطبول دقات قلبه تزداد صخبا وسرعة، بحث في جيبه، عن الرسالة الأولى وقرأ بصوت متهدج، ليسمع نفسه:

الرسالة الأولى:

(عزيزي المستأجر الجديد، هذه رسالة الغرفة الأولى، ستسمع بكاء ونحيب طفل رضيع، طوال الليل، لا تخف، فهو بكاء رضيع جائع. نعم. يصرخ من الجوع. طفل رضيع تتمنى أن يأتي إلى الدنيا، اسمه إسماعيل، اسم والدك، لكنه لم يأت ولن يأتي، تركته أمه ريم، لم تهرب، بل كانت تهرول لإنقاذه، بقي المسكين وحيدًا لساعات يبكي ومات جوعا.)

الرسالة الثانية :

(أنا الذي كنت داخل السيارة التي استأجرتها لإنقاذ حبيبتي من قبل، وعندما ارتطمت بالجدار، هرولت ريم عند سماعها صوت استغاثتي، نسيت طفلها الرضيع، واخذتني إلى قرب مستشفى، وحين اطمأنت على صحتي، تذكرت رضيعها خرجت مسرعة من المستشفى، ولكن القدر لم يسعفها فقد لقت حتفها في حادث أليم)

فرغ من قراءة الرسالتين وانتابه شعور بالتيه فأوجس في نفسه خيفة تجاه الغرفة الثالثة. غرق في بحور الحيرة، هل يقتحم هذه الغرفة أم يتركها وفي جوفها السر الأخير.. أم أن عليه انتظار ما سوف يراه في كوابيس الليالي القادمة؟

آثر السلامة وعاد لغرفته وقلبه مليء بالحزن واليأس ونام بعمق.

25فبراير:

قال البواب في محضر النيابة:

" انا المسئول عن خدمة عمارتين بجانب بيت المهندس / هشام صاحب البيت الأرضي، منذ عدة أشهر تعرض لحادث بسيارته، وماتت حبيبته، عاد من المستشفى بعد عدة أشهر. ويبدو أنه تماثل للشفاء بعد أنكان جسده بالكامل في الجبس، كانت حالته مزرية للغاية عندما عاد. حالة غريبه، كل شهر يستدعينا كي ننظف شقته. لا نعلم من أين له بكل هذه المخلفات، ولاحظت عدم خروجه من شقته. فقد كان من عادته الخروج كل صباح او مساء. لم يظهر منذ عشرة أيام أو أكثر، قرعت بابه. لا اجابه. قلقت عليه. اقتحمت شقته. ووجدت كما العادة نفس الفوضى. إضافة إلى رائحة نثنة تفوح في الشقة ".

(دخل البواب الشقة بمفتاح إضافي قد تركه له صاحبها، رأى البيت في حالة ميؤوس منها، ضرب بكفيه بعضها ببعض ثم حوقل معبراوعن امتعاضه لما رآه، نادى على المهندس عدة مرات ولم يتلق أي إجابة، استنشق رائحة كريهة جدا ومنفرة للغاية، بحث في الغرفة والحمام والمطبخ لم يجد شيئا، فتح الباب الداخلي، فإذا بالرائحة الكريهة تزداد عفوتنها، فتح باب الغرفة الأولى والثانية فلم يجد شيئا، اقترب من باب الغرف الثالثة ووجد الشجرة اليابسة عليها ظرف، أخذه وأزال الشجرة من طريقه، وفتح الباب وعلم بعدها سر الرائحة وحل اللغز.

الرسالة الثالثة:

(عزيزي المستأجر الجديد، إنها ليلة ١٩ فبراير، ليلة الاحتفال بذكرى عيد ميلاد ريم، لقد كنت السبب في ضياع أسرتي، قتلت حبيبتي وابني دون قصد، فقدت الحياة بريقها من بعدهما، لذلك قررت الالتحاق بهما)

جف حلق البواب واتسعت حدقتاه من الذهول واهتز قلبه بين ضلوع صدره وحاول المحافظة على اتزانه وهو يرى المهندس متدليا بحبل ملفوف حول عنقه متدل من السقف. شنق المهندس نفسه.

***

قام هشام من مكانه ونظر إلى صديقه الذي لم يكن إلا شيطانه أو خياله الغير مرئي، طلب منه أن يلتمس له المغفرة، فقد تعذب كثيرا وحان وقت الراحة الأبدية.

***

انتحر هشام وسجل انتحاره في آخر سطور روايته، وفيت بالوعد وأرسلتها إلى دار نشر مشهورة تحت عنوان

(قبل ليلة ١٩ فبراير)

"عندما يعزف الشيطان"

***

((بعد سبع سنوات))

عدت لالتقاط جريدة أخبار اليوم مرة أخرى، وللمرة الرابعة هذا الصباح تطلعت لقراءة الخبر الذي احتل مساحة كبيرة من صفحة الحوادث في الجريدة وقرأت هذا العنوان فوق صورة لشخص أعرفه جيدا:

عاش وحيدًا. نهاية دراماتيكية لـ (طبيب المعادي)

في محافظة القاهرة، تحديدًا بمنطقة المعادي، عاش «الدكتور أمجد غانم» صاحب الـ 64 عامًا، داخل فيلا، هجرته زوجته التي تعاني من الوسواس

القهري منذ زمن بعيد، ومات ابنه الوحيد والذي أراد الله أن يخرج إلى الدنيا، وخرج منها قبل أن يرى ولده الوحيد.

أيام وليالي مرت على الطبيب الستيني، دون أن يتعامل مع أحد، وبرغم من تواجده بمفرده داخل مكان يصعب على أحد أن يعيش بداخله وحيدًا، إلا أنه صمد طوال عشر سنوات كاملة، على هذا الحال.

نهاية حزينة كانت من نصيب «طبيب المعادي»، الذي فارق الحياة داخل غرفته، دون أن يشعر به أحد، بعد سنوات من «العزل الاختياري»، دون أن يودع أصدقائه وأحبائه، متحفظًا بالسر وراء عزوفه عن الدنيا إلى الأبد.

مرت أيام وجثة «الدكتور أمجد»، تواري سرير غرفته، حتى تحللت تمامًا، ولم يتبق منها سوى عظام تنتظر مكانها الطبيعي تحت التراب.

صدمة مدوية صاحبها صرخات ودموع إحدى قريبات الطبيب، التي تذكرته فجأة وجاءت لزيارته، لترى مشهدًا لم تستطع الأيام محوه من ذاكرتها، بعد ما شاهدت أقرب من الناس إليها هيكل عظمي.

دقائق معدودة استغرقتها قريبة «طبيب المعادي»، حتى تتمالك أعصابها، من هول المشهد، وأبلغت «النجدة» بتفاصيل العثور على جثة الطبيب، دون إبداء أي معلومة عن الحادث.

دوت «سارينة» سيارات الشرطة، أرجاء المنطقة الهادئة، وتوقفت أمام فيلا المتوفي، وبدأ رجال المباحث في معاينة مسرح الحادث، ومناقشة جميع المتواجدين داخل وخارج الفيلا، للتوصل لمعلومات لكشف ملابسات الواقعة.

بعد الانتهاء من فحص ما تبقى من جسد الطبيب، حضرت سيارة إسعاف، ونقلت وفاته إلى مشرحة المستشفى، وبعد إخطار النيابة العامة، قررت ندب الطبيب الشرعي، لتشريح الجثة لمعرفة ما إذا كانت الوفاة طبيعية، أم ورائها شبهة جنائية، وصرحت بالدفن عقب الانتهاء من التشريح، وطلبت تحريات المباحث، عن ظروف وملابسات الواقعة.

***

مات أمجد وحيدا. خشيت من ريم أن تكون هي التي سألت عنه بعد كل هذه السنوات ولكن أسعفني الخاطر الذي جال برأسي بأنها لم تكن على علم بأن أبيها تم انقاذه في آخر لحظة ، خشيت أن تنتكس مرة أخري خاصة بعد أن ارتاحت لموت هشام ، فقد تعافيت من مرضها بشكل كبير وبعد عام ونصف من استعادة الذاكرة أحبت شابا جميلا وتزوجها وأنجبا طفلين وعوضها الله الكثير بدلا عن أيام العذاب التي رأتها بين عائلة غانم الغير سوية، لازالت تزورني هي وزوجها وأولادها كل جمعة، لم تعرف أبدا أن هؤلاء الأولاد هم أحفادي وأنني لست صديقتها ولا خالتها فحسب، بل أمها، منى يحيي ، الشهيرة بـ هادية فاروق أو هيدي.

-تمت -

الجمعة

19 فبراير 2021

شكر خاص جدا للصديق "شكيب أريج" من دولة المغرب الشقيقة لدعمه للعمل الأدبي والمجهود المبذول وإبداء الرأي في تفاصيل هامة ودقيقة بالرواية.

شكر خاص لكل من:

- مي محمود حافظ
- أمنية صالح
- شيرين طلعت
- هالة الجسمي
- عمرو عبد الرحيم